دولة الموحدين

MOUWAHDEEN COUNTRY

سقوط الأندلس الإسلامية ومحاكم التفتيش البربرية



الدكتور علي محمد الصلابي

مؤسسة اقرأ

صفحات من التاريخ الإسلامي
في الشمال الإفريقي

دولة الموحدين

سقوط الأندلس الإسلامية
ومحاكم التفتيش البربرية

تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٢٩٧٩

الترقيم الدولي:

977 - 6119 - 99 - 9

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧

www.iqraakotob.com
Email: info@iqraakotob.com

الإهداء

إلى أبناء الشمال الإفريقي خصوصًا، وأبناء الأمة عمومًا أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المؤلف

د/ علي محمد محمد الصلابي

مقدمـــــة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هادىَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن مُحمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وبعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي، هدى محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

أما بعد: يا ربِّ لك الحمدُ كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيت.

هذا الكتاب الخامس من سلسلة «صفحات مشرقة من التَّاريخ الإسلامى فى الشَّمَال الإفريقي» يتحدث عن «دولة الموحدين» فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظالمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء، وهتك الأعراض عند الموحدين، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت، والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداءً من عبد المؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحد الشمال الإفريقي بقوة السلاح والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناءه واحفاده عليها من

بعده، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام ٥٩١هـ فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل اصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الأضواء على الثورات التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات؟ وما هي أسبابها؟ وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي؟

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السنن الآلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم.

ثم كيف انتزعه السعديون منهم؟ ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصرًا عزيزًا على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام ٩٨٦هـ والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الإسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في إفريقية وأسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ويقف على أسباب سقوط الدولة الحفصية وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرّروا طرابلس من فرسان الدين يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيرًا فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب:

١- بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة، وعقدية فاسدة.

٢- أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبنائها عليها حتى يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

٣- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

٤- التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين.

٥- إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذي يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

٦- كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام.

٧- بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

٨- بيان أن الذين كفّروا المسلمين، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم بأنهم قادة في

الفساد والدمار والإجرام.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: محمد بن تومرت.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني: عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده:

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: عبد المؤمن بن علي.

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر.

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني: دولة بني مرين.

المبحث الثالث: دولة بني عبد الواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة.

وأخيرًا:

أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

إنه ولي ذلك والقادر عليه، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلاّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

* * *

الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

أ- اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال إنه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي، والبعض الآخر يجعل نسبه بربريًا صرفًا. والبعض الآخر يجعله نسبًا مختلطًا بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول(١).

والمتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة، بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأنَّ لقبول دعوته، وإلى تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ، حيث قال: «وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجّة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادّعاه وانتسب إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدّقون في أنسابهم»(٢).

وقول ابن خلدون فيه نظر، لأن المؤرخين الأثبات والثقات أثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه(٣).

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار(٤) في صحّة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادّعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان

---

(١) انظر سقوط دولة الموحدين د. مراجع عقيله ص٣٦.
(٢) ابن خلدون، المقدمة ص٢٦..
(٣) انظر الذهبي سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٣٩).
(٤) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن ترمرت د. عبد المجيد النجار ص٥٦.

التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوبًا مستعارًا قصد وراءها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضًا شعارًا لإمامته ورياسته[(١)].

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه، أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج ما يلي:

١- أنه لم يشتهر بين المؤرخين لا سيما علماء الأنساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت[(٢)].

٢- أن هذا الادعاء كان مألوفا عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

٣- ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفًا عند أتباعه إلا بعد أن ادّعى ذلك لحاجة في نفسه[(٣)].

أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال: ٤٧٣هـ[(٤)] ومنهم من قال: ٤٨٥هـ[(٥)] ومنهم من قال: ٤٦٩هـ ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣هـ[(٦)].

ولم تعط المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: «وكان أهل بيته أهل نسك ورباط»[(٧)]، كما أنها

---

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ص٥٥٧.
(٢) من هؤلاء المؤرخين، أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وابن القطان، وغيرهم.
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص٥٥٨.
(٤) انظر: سقوط دولة الموحدين ص٣٦.
(٥) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ٥٢).
(٦) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص٥٧..
(٧) ابن خلدون، العبر: (٦/ ٢٢٦).

كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة»[١].

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلّم القرآن حفظًا ورسمًا وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه... إلى أن يجاوزوا حدّ البلوغ إلى الشبيبة)[٢].

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئًا من الفقه، ولقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون: «وشبّ محمد هذا قارئًا للعلم، وكان يسمّى «آسفو» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج في القناديل بالمساجد لملازمتها»[٣].

ب- رحلته في طلب العلم:

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهال من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عامًا كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة[٤] ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور[٥].

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحرًا ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام[٦].

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة: ٥٠٦.
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص٥٠٦.
(٣) تاريخ ابن خلدون (٦/ ٢٢٦).
(٤) البيان المغرب (١/ ٤٣٥).
(٥) نفس المصدر السابق (١/ ٤٣٥).
(٦) انظر: تجربة الإصلاح لابن تومرت (ص٥٩).

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروسًا وأخذ علمًا من الشيخ أبي بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام وأدي الفريضة(١) وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها ما يزيد على عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفا قال ابن خلدون: (ودخل العراق، ولقي جلّة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علمًا واسعًا) (٢).

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، والكيا الهرّاسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت:٥٥٥) مبرزًا في علم أصول الدين والتصوف ومتبحرًا في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء قال الذهبي عن كتابه الإحياء: (أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد في طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علمًا نافعًا.

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه، قال عليه الصلاة السلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»(٣). فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رءوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم) نعم ولم ينس الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليدًا في الأصول»(٤).

وقال الشيخ الطرطوشي(٥) في رسالة له إلى ابن مظفر: «فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس

---

(١) انظر: ابن خلدون (٦/ ٦٢٢).
(٢) انظر: ابن خلدون (٦/ ٦٢٢).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم (٥٠٦٣).، ومسلم رقم (١٤٠١).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٠، ٣٤٦).
(٥) توفى عام (٥٢١هـ).

العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء»، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أمّ رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»[١].

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الإحياء قائلا إن غالبه جيد وإن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه مواد مذمومة وفاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا: أمرضه الشفا - يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة - وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترّهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يُردّ منه»[٢].

وقد كان يتعرض دائمًا لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ما جاء فيها بأسلوب هادئ علمي وغالبًا ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلا على كتب الحديث وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره[٣].

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وأن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[٤] وأن ابن تومرت تأثر به وكأن ابن تومرت رجل متحرر من الجمود والتقليد ومتنور في أطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان أن الغزالي كان مضطربًا في منهجه العقدي ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأن ابن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤١).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢١٠).
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٥٥١،٥٥٢)، (٦/ ٥٥).
(٤) انظر تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص٦١.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكيا الهرّاسي (ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، فقد كان عالما في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأمّا المبارك بن عبد الجبار (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) فقد كان محدّثًا مكثرًا، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ)، فقد كان عالمًا في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألّف في المذهب كتابه «المستظهري»[(١)].

وكان من شيوخه أيضًا أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢١هـ) الذي أخذ عنه ابن تومرت العلم في الإسكندرية، وكان متميزًا في الفقه، ومتمكنًا في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب «سراج الملوك»، كما كان الطرطوشي مهتمًا بنشر السنة ومحاربة البدعة وألف كتابه «الحوادث والبدع».

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية والنقلية، فضبط الأصول، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم[(٢)].

ورأى عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب وحضر مناقشاتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل العالم الإسلامي كله[(٣)].

* * *

(١) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت (ص٦١).
(٢) المصدر السابق، (ص٦٢).
(٣) انظر: سقوط الموحدين (ص ٣٧،٣٨).

المبحث الثاني

البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

نظر ابن تومرت في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله، وخصوصًا تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي. وأهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس قوية تحميها دولة في بلاد المغرب والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره وزاد عليها:

١- الاتجاه السني وتمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧١-١٩٣هـ) سنة١٨٤هـ على ولاية إفريقية، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الأسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغًا من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب. وقد توالى على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ وقد عمل الأغالبة - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا أيضًا على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار[1]. أما دولة المرابطين (٤٥١-٥٤١هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وقامت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس

(١) انظر: الأغالبة. سياستهم الخارجية، للأستاذ/ محمود إسماعيل (ص٤٤).

التي تبنتها: الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وسائر أمور الدولة(١). وكان من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصارى في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (٤٨٠هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لا سيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩-٥٤١هـ) سنة ٥٤١هـ(٢) وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس(٣)، وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) (٤) وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضيًا(٥).

ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليه سيف السنة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

---

(١) انظر: قيام دولة المرابطين لحسن محمود ص١٦٦. (٢) انظر: البيان المغرب (٣/ ٢٣).

(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص٥٤١.

(٤) انظر: ابن خلدون (٦/ ١٥٩).

(٥) نفس المصدر السابق.

٢- الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (١٤٠-٣٤٧هـ) والرستميين (١٤٤-٢٩٦هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سلجماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى[(١)].

وفي سنة ١٥٥هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار (١٥٥-١٦٧هـ) وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار (٣٣٢-٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الأباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (١٤٤-١٧١هـ) سنة ١٤٤هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له[(٢)].

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب، رأى آخرون[(٣)] مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبد الرحمن الأمر فيهم، لكن مسعود تنازل لعبد الوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة[(٤)] وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها وهو اليقظان بن

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي ص٤٦.
(٢) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٥٨٣).
(٣) المصدر السابق: (٢/ ٥٥٢،٥٥٣).
(٤) انظر: الأزهار الرياضية للباروني (٢/ ٩٩٠).

أبي اليقظان (٢٩٢-٢٩٦هـ) وذلك سنة ٢٩٦هـ[١]، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة[٢].

٣- الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين:

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب إذ إن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة ٢٩٦هـ.

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس[٣] كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢هـ.

٤- الاتجاه الاعتزالي ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢-٣١٣هـ):

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله بن الحسن سنة ١٧٢هـ، وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غربًا إلى تلمسان ووهران شرقًا[٤].

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة ١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتى قضى على دولتهم العبيديون عام ٣١٣هـ[٥]، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف[٦]، وقرب نسبهم للرسول ﷺ

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٥٦٥).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي ص٤٨.
(٣) المصدر السابق: ص٥٥.
(٤) المصدر السابق نفسه (ص٥٠).
(٥) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٤٨٦).
(٦) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص٥١.

ولكنهم لم يظهروا شيئًا من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصًا من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماسًا لجعله مذهبًا رسميًا لدولتهم[١].

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع المذاهب السابقة وزاد عليها بما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ولذلك جاءت الأسس وقضايا التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها.

ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط. بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة. فهو في دينه ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف، وهو في علمه متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن، ويعقوب بن يوسف، ويعتبر رجل السياسة لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها[٢].

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.

* * *

(١) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، لعدد السادس (ص٥٤٦).
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين (٣٨).

المبحث الثالث
مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام ٥١٠هـ[1] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحرًا حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية ثم انتقل إلى المهدية بتونس واتخذ أحد مساجدها مقرًا يدرس به العلم مركّزًا على علم الأصول وأحدث اضطرابًا في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة ٥١١هـ وأقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم[2].

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهًا إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن علي علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به[3]، فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكره.

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، وإن صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع ب د م و م ن)

---

(١) روض القرطاس ص١٢٠.
(٢) انظر: تجربة الإصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت ص٦٣.
(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٧٤،٧٧٥).

ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويبشر به قبل قدومه.

وكتاب الجفر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق رحمه الله كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوبًا عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجَفْر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفرًا الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب. قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩].

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع من عُرف بالكذب والاختلاق، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعًا وعقلاً أن نقول بثبوته(١).

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتمامًا كبيرًا في هذه الأمور(٢).

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه وخصوصًا ما يتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذا يعملان سويًا من أجل تقويض دولة المرابطين(٣).

---

(١) انظر مجلة المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٠).

(٢) انظر: دولة المرابطين سلامة محمد ص(١٠١).

(٣) المصدر نفسه (ص١٠٢).

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دورًا هامًا في دعوته عبد الله الونشريسى الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريسى بذلك وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس[1].

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام ٥١٤هـ وكان خلال هذه المدة ملتزمًا ببرنامجه الذي وضعه لنفسه والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة، إضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أفضى إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش[2] مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الإستراتيجية[3] ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤هـ في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاته أو وزرائه، لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية[4]، وصدف أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فوبخها فشكته إلى أخيها، ثم توجه ابن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالسًا وحوله الوزراء وقوفًا فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب عليًا قائلاً «الخلافة لله، وليس لك يا علي بن يوسف»[5].

---

(١) انظر: ابن خلكان (٥/ ٤٨).
(٢) انظر: البيذق أخبار المهدي ابن تومرت ص(٢١،٢٦).
(٣) انظر: دولة المرابطين، سلامة محمد ص (١٠٣).
(٤) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ص (٤/ ٢٨٢).
(٥) انظر: دولة المرابطين ، سلامة محمد ص (١٠٣).

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السنة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه(١).

ولم تُعْمِ فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب(٢).

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت، لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته. وهي أيضًا وسيلة دعائية ممتازة لدعوته؛ لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية - الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل - عنهم قاضي المرية محمد ابن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمور تباع جهارًا نهارًا، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسئولية هم حاشية

(١) انظر: دولة المرابطين، سلامة محمد (ص١٠٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (١٠٤).

أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه[١].

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز العلماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهما بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخاذ، يسخر له كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت[٢].

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليُكفي شره، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين. ولكن وزيرا علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألحّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له: «اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً» فوافقه على ذلك [٣]. وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف فخلِّ سبيله إنه رجل لا يملك سد جوعه». لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين [٤].

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادئ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث هناك

---

(١) انظر: ابن خلكان (٥/ ٤٦).
(٢) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ص (١٠٥).
(٣) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٥٠،٤٩).
(٤) انظر: دولة المرابطين (ص١٠٦).

بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:-

١- إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين، فقد إنتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك [(١)].

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين: الأول منهما: هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني: فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلكم حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك...» [(٢)].

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة [(٣)]، حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما إن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٩، ٥٠).

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٤٩).

(٣) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب عبد الله علام ص (٨٥).

لدعوته ومخايل الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عددًا من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار

ومن هذه السبل ما يلي:

أ- أنه تدرج في إظهار دعوته، كما ألبسها الصبغة الإصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي [١].

جـ- أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذي يمر بديارهم كما فعل مع العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية[٢]، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

د- مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لا يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشًا وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون[٣] وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجأون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم[٤].

يقول ابن العماد: (جرّه إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب

---

(١) المعجب ص (٢٧٠).
(٢) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).
(٣) أخبار المهدي ابن تومرت (ص ٢٢).
(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٥٠).

المحظور ودعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وأنه معصوم وهو بالإجماع مخصوم...)[(١)].

٢- وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جدّ في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفرادها إعدادًا خاصًا، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً[(٢)]، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث أنشأ حلقات للتدريس كان يبث أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتابًا في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه[(٣)].

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشني من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فآووه وأجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه[(٤)]، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتمى بشوكتها من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها[(٥)].

٣- ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي

(١) شذرات الذهب (٤/ ٧٠).
(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد الخامس (ص ٥٤٩).
(٣) ابن القطان نظم الجهات ص (٤٦) .
(٤) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).
(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٥١).

كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة إذا ما قورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكوّن قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذًا الأمر بالمعروف ستارًا لتحقيق غايته وطريقًا لإظهار مفاسد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس(١).

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥هـ، وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين. وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجدًا يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التفت حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين(٢).

حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزًا نفسيًا قويًا بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجديًا في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والمهدية، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم. وهذه الخطوة تدل على

(١) البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت ص (٩).
(٢) انظر: ابن خلدون (٦/ ٢٢٨).

دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيرًا بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوبًا مناسبًا لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لا يفطن إليه إلا من أوتي حظًا وافرًا من الفطنة والدهاء. ونجح دعاة ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه [١].

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لا تزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورًا[٢].

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيبًا موضحًا لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام[٣] وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل إيجليز[٤] في عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل، لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين وساعده على نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير[٥].

---

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١٠٩) .
(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (٦/ ٥٦٢) .
(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٨).
(٤) انظر: دولة المرابطين ص (١١١).
(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٥٤).

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

إلـي وفي الـنفس أشـياء مخبـأة ... لألبسـن لهـا درعًـا وجلبابـًا
كيمـا أطهـر ديـن الله مـن دنـس ... وأوجـب الفضـل للسـادات إيجـا[1]
تـالله لـو ظفـرت كفـي بمطلبهـا ... ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى[2]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمى الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضًا بالمرابطين واتهمهم بالتجسيم وهم براء منه وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاءه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل[3] في قلب جبال الأطلسي الكبير عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م[4].

* * *

---

(١) انظر: الذهبي (سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٥٢).
(٢) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١١١).
(٣) انظر: دولة المرابطين (ص١١٢).
(٤) نفس المصدر (ص١١٢).

المبحث الرابع
الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت:

أولاً: أنه ادعى المهدية وقال: أنه هو المهدي الذي وعد الرسول ﷺ بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته إمامًا للموحدين سنة ٥١٥هـ: (الحمد لله الفاعل لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي...»[(١)].

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل إنه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله: (إن العدل ارتفع، وإن الجور عم وإن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وإن الدجالين استولوا على الدنيا، وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وإن الحق لا يقوم إلا بالمهدي، وإن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وإن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وآن...)[(٢)].

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله: «إنه فرد زمانه صادق في قوله، وإنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله: «وإنه يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليها الخطأ وإنه لايكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وإنه صادق في قوله، وإنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وإنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...»[(٣)].

---

(١) نظم الجمان لابن القطان ص (٧٥).

(٢) انظر: أعز ما يطلب لابن تومرت ص (٢٥٧).

(٣) ابن تومرت أعز ما يطلب ص (٢٥٦، ٢٥٧).

هكذا كان رأي ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلامًا كما مُلئت جورًا وظلمًا، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء مطرها، ويُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم»(١).

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

أ- اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم أبى النبي ﷺ فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن علي.

قال ابن كثير - رحمه الله- في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه»(٢). وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»(٣).

ب- مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.. (ثم ذكر شيئًا لا أحفظه فقال... فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبوًا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي...**» (٤).

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم تحقيق د. طه زيني (١/ ٣١). (٢) النهاية، المصدر نفسه (١/ ٢٩).

(٣) الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (٢/ ١٣٦٧).

١- قال ابن كثير - رحمه الله -:

(والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من -أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن-، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب، ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان.. إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود «أيضًا» وهو زيّ عليه الوقار «لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب» إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...» [(١)].

٢- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم!»**[(٢)].

٣- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»** إلى أن قال: **«فينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم، تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»**[(٣)].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجلاً منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدلّ على صلاح هذا الأمير وهُداه.

(١) النهاية الفتن والملاحم (١/ ٣١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى، (٦/ ٤٩١) مع الفتح، حديث رقم (٣٤٤٩).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى (٢/ ١٩٣).

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمّى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضًا.

١- فعن أبي سعيد الخدري ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه»** (١).

٢- وعن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة»**(٢).

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي منّي أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا يملك سبع سنين..»** (٣).

ولقد تكلم العلماء في احاديث المهدي:

١- **قال الشوكاني:** «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرّحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضًا لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك..) (٤).

٢- **وقال صديق حسن خان:** «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد»(٥).

٣- **وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني:** «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام»(٦).

---

(١) رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الألباني، رحمه الله، صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧١٧٠).
(٢) المنار المنيف لابن القيم ص (١٤٧،١٤٨).
(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي (١١/ ٣٧٥)، رقم (٤٢٦٥).
(٤) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.
(٥) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (١١٢).
(٦) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص (١٤٧).

وأما العلماء الذين صنفوا كتبًا في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلي، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف ابن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها من المصنفات[١] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعًا كبيرًا من الأحاديث الواردة فيه. ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[٢]، وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[٣] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيرًا من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو القليل أو الأقل منه»[٤].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقًا على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي»: «كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[٥].

قال الشيخ أحمد شاكر ردًا على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين الجرح مقدم على التعديل ولو اطّلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئًا مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[٦] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء

(١) انظر: عقيدة أهل السُّنّة والأثر في المهدي المنتظر ص (١٦٦/ ١٦٨).
(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٩٩، ٥٠٤).
(٣) دائرة معارف القرن العشرين (١٠/ ٤٨٠).
(٤) مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤).
(٥) اشراط الساعة للوابل ص (٢٦٧).
(٦) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صوابًا وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواترًا معنويًا وهذا يكفي وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصبًا فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصًا، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضًا، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمده يُردّ بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ[1].

قال العلاّمة ابن القيم في كلامه عن المهدي:

«وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيرًا من أكثر من خمسمائة

---

(١) انظر: أشراط الساعة ص (٢٦٧).

سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا؟
فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدام، وضحكة يسخر منهم كل عاقل...) [(١)].

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهدية، أن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة الزم بها أتباعه وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم، دون حرج أو تردد، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: «ويجب أن يكون الإمام معصومًا من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصومًا من الضلال.. ولا بد أن يكون الإمام معصومًا من هذه الفتن وأن يكون معصومًا من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته... وأن يكون معصومًا من الكذب لأن الكذب لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصومًا من الباطل.. ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»[(٢)].

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال:

«لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد»[(٣)]، وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت إتجاهًا قويًا من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند اتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به[(٤)].

---

(١) انظر: المنار المنيف ص (١٥٢ ، ١٥٣).
(٢) انظر: أعز ما يطلب ص (٢٤٥ ، ٢٤٦).
(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٦).
(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس.

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولا بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ثم بالمهدية ثم بالعصمة.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي وغيرهم رضي الله عنهم[١].

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان[٢] كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان»[٣] وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير «لأن من جعل بعد الرسول معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها»[٤].

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»[٥] وأمرهم بقراءته بل حفظه، وهذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد النجار عندما قال «وما قال به - أي محمدابن تومرت - من عصمة الإمام يخالف أيضًا العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغًا فيها للشروط التي يشترطها أهل السنة في الإمام»[٦]. ولقد ذكرت شروط أهل السنة في الإمامة في الكتاب الثاني من «صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي».

---

(١) انظر: النبوة الانبياء للصابوني ص (٥٦،٥٥).
(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٩٥).
(٣) انظر: عقائد الإمامية محمد رضا ظافر ص (٧٢).
(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص (٥٦٠).
(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص٥٦٠).
(٦) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ص (١٢٧).

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانيًا: لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم: حيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة [١].

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله - سبحانه - حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقًا ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن»[٢] لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى لو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمى أصحابه بالموحدين[٣]؛ لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم [٤].

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان «... جُل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشاعرة...» [٥] أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علّمهم المذهب الأشعري فكان ذلك سببًا في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب[٦].

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٥٤٨). (٢) انظر: أعز ما يطلب ص (٢٠٤).

(٣) انظر: عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد (١٢) (سنة ١٩٥٠م)، (ص٤٩)، حسين مؤنس.

(٤) انظر: المراكشي المعجب ص (٢٧٦). (٥) المصدر السابق ص (٢٧٦).

(٦) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٤).

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها[١].

لقد وظّف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله.

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيتهم، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتالهم ومعاملتهم معاملة الكافر. كما أن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل الله ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة. فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي، فانطلقوا كالأعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم[٢].

إن الدكتور عبد المجيد النجار في كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت والذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثنى على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهمًا جديدًا يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقته التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسائله المبسّطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقررًا للحفظ والدراسة في كثير من مناطق

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٣٩). (٢) المصدر السابق (٣٩، ٤٠).

المغرب على مر الأيام»[١].

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فقال: الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفًا من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واستجاز أن يظهر لهم أنواعًا من المخاريف، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقوامًا ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطئ اسمه اسمه، واسم أبيه وأنه يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جورًا وظلمًا، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعًا وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه...»[٢].

واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرءون القرآن والحديث، كالصحيحين، والموطأ

(١) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت (ص١٣٨).

(٢) انظر: الفتاوي (١١/ ٤٧٧).

وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضًا أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة...

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل، وأعداء الرسل: الجهمية والفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل. فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه: بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير. وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه. وأنه كلم موسى تكليمًا، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ. كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ناد مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكوه: فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»، وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته» وأن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضامون في رؤية الشمس صحوًا ليس دونها حجاب؟» قالوا: لا. قال:

«فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» فشبه ﷺ الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علما، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء: إن «الإدراك» هو الإحاطة، فالعباد يرون الله تعالى عيانا ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. فيبين في هذه الآيات أن الله لا كفو له، ولا ند له، ولا مثل له ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل، بل كافر.

ومن قال: إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضا، ولا غضب، ولا استواء ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهًا.

ومما يبين ذلك. أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماءً ولبنًا وخمرًا وعسلاً ولحمًا وفاكهة وحريرًا وذهبًا وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير. وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه

رءوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رءوف رحيم، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه عليم حليم، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا. وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم على هذا إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا يقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقًا للمعدوم، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيثبتونه من وجه، ويجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجودًا، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمرًا مطلقًا، وإن كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجودًا مباينًا لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقا في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون: هو وجود المخلوقات. ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق، ولا يزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك، ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهما.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة. كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه. واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به».

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئًا من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة. بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطاله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على

المسلمين ما أوجبه الله ورسوله وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقا، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقًا وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام[1] على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد و (التوحيد) هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. وهذه السورة تعدل ثلث القرآن.

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيدًا فمن قال: إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو قال: إن الله يرى في الآخرة أو قال: «أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك» لم يكن موحدًا عندهم، بل يسمونه مشبهًا مجسمًا، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين، اتباعا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيدًا ما أنزل الله به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن.

وقال أيضًا في قدرة الله تعالى: أنه قادر على ما يشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة

(١) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية .

وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير. سواء شاءه أو لم يشأه. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون».

قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة. وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاءه، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود:١١٨]، فالله قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لايشاءه وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبينا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدى ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا.

وقال له: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله

وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفًا للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والاجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].(١)

وهذا رد علمي رصين على المرشدة التي وضعها ابن تومرت لأصحابه تبين للقارئ فساد ابن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسنة واعتماده لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكان رد العلامة ابن تيمية مليئًا بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطريق السلف الصالح.

إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (٣٣٠ هـ)، (وأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) والفخر الرازي (٦٠٦هـ)، وإمام الحرمين (٤٧٨ت هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياتهم ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم.

أ- أبو الحسن الأشعري:

وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في كتابه الإبانة: (فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون»(٢).

ب- إمام الحرمين الجويني:

(لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي

(١) انظر: الفتاوي (١١/٣٧٦، ٤٩١).

(٢) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص (١٧).

نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي...) [١].

جـ- الإمام الغزالي:

(إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئًا وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان) [٢].

د- وأما الفخر الرازي فقد قال في وصيته:

(ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع في التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات... فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...) [٣].

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا [٤]

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

---

(١) انظر: الحموية لابن تيمية ص (٧).
(٢) إلجام العوام عن علم الكلام ص (٨٩، ٩٠).
(٣) انظر: القائد لتصحيح العقائد ص (٧٤).
(٤) انظر: إيثار الحق على الخلق ص (٨).

فلم أر إلا واضعا كف حائر   على ذقن أو قارعا سن نادم[(١)]

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة منها رميهم ظلمًا وزورًا بالتجسيم وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة، والرافضة أساسًا لعقيدة دولة الموحدين الجديدة، وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:

١- لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تبنى - بصفته إمامًا مطاعًا - هذا الجانب فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفشو مذاهب المتكلمين.

٢- تأليفه للمرشدة، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس للعوام، مما جعلها تشتهر بسرعة.

وفيما عدا ذلك فإبن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل قربة من الأشاعرة بل أخذ شيئًا من الخوارج لا سيما في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضربًا من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب[(٢)].

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضًا ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل[(٣)].

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق ص (٨).
(٢) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام ص (١٥١).
(٣) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام (ص١٥١).

ومما لاشك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، خصوصًا بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب.

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله:

«... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر... واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة»[1].

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتنق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرّح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا «... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دماءهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل...» [2].

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فان أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم...» [3].

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب «أعز ما يطلب» يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات

---

(١) السلاوي (١/١٢٦، ١٢٧).
(٢) أعز ما يطلب (ص ٢٦).
(٣) المعجب (ص٢٨٢).

والدعاوي الباطلة ضدهم، بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض[١].

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي الصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعاية بل إنه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض «واعلموا وفقكم الله - يعني أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين فلا تلتفوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدى من سنة رسول الله ﷺ، فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكريا عقديا غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاها فكريا واضحا عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوته. ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أُثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي وذلك لأن كثيرًا من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها[٢].

وتساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئًا من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث ألبسه لباسًا دينيًا حتى أصبح اتجاهًا دعويًا واضحًا في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحضر أُدِّب فإن تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط مرة

---

(١) من هذه الفصول على سبيل المثال «باب في بيان طوائف الملثمين والمجسمين».
(٢) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب (ص ١٨١) .

ومرتين فإن ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل ومن داهن قتل».

كما ذكر كل من البيذق[1] وابن القطان[2]، وغيرهما من المؤرخين[3] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفًا لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ حيث قال: «فأمر بالميز فكان البشير[4] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا، وازداد الذين آمنوا إيمانًا وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل...»[5].

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز باتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه ابن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلما كان عام تسعة عشر وخمسمائة، خرج يومًا فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشرًا لكم، مطلعًا على أسراركم، وهو آية لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ، فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصانًا وساقه، فبهتوا، وعدُّوها آية لغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهم، ونبيكم ﷺ يقول: «إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم»[6]، وقد صحبنا أقوام أطلعه الله على سرهم، ولا بُدّ من النظر في أمرهم، وتيمُّم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعًا للإمام، فليأت، فأقبلوا يهرعون، فكانوا يُعرضون على البشير، فيُخرج قومًا على يمينه

(١) انظر: أخبار المهدي (تحقيق عبد الحميد حاجيان ص (٧١،٧٢) .
(٢) نظم الجمان ص (١٠٢،١٠٤).
(٣) كابن الاثير، وابن خلدون، وابن العماد، والسلاوي.
(٤) هو أبو عبد الله بن محسن الونشريشي.
(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٨).
(٦) البخاري (٧/ ٤٢) رقم (٣٦٨٩).

ويعُدُّهم من أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردُّوه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفِرُّ منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدة، قتلهم قراباتهم حتى يقتل الأخ أخاه...)[١].

قال شعيب الأرنؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ «**إن في هذه الأمة محدَّثين، وإن عمر منهم**» في الونشريسي بأنه ملهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر...)[٢].

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[٣] ولما حل ابن تومرت تينمل، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عددًا كبيرًا من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل[٤] ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند اتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم، ويدعو إليه، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكانًا للتنفس، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٦).
(٢) الذهبي سير أعلام النبلاء (١/ ٥٤٦).
(٣) انظر: الدعوة الموحدية لعبد الله علام ص (١٩٢،١٩١).
(٤) انظر: الكامل في التاريخ لابن الاثير (٦/ ٥٦٣).

ﷺ وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورًا وظلمًا، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بصحة ما يدعوا إليه، يعظم اعتقادهم فيه، وتتأكد طاعتهم له، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبروا يستبيح دماءهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لا يفشو سره بعد ذلك[1].

هذه صورة وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه، ولا شك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصًا واحدًا، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله بل مهديًا معصومًا!؟[2].

وإني لأستغرب من الدكتور عبد المجيد النجار في تسمية كتابه «تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت» وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي ابن تومرت ومن العجب أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات.

* * *

(١) نظر: الفتاوى (١١/ ٤٧٧).

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٩) لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي:

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته، ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملك من قوة ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل ما يريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

١- التربية العقدية الروحية:

استغل ابن تومرت جهل أتباعه من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة وكتب لهم شيئًا في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري وبنى مكانًا للعبادة ولتعليم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري)[1].

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي وتعلم المرشدة واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة وكان يوزّع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسئولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج الشدة في التعليم والتربية وأحدث أحكامًا تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ ما يطلب منه حفظه[2].

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد، أما من برز في العلم من أصحابه فألف لهم كتبًا ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

---

(١) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧،٢٢٨).

(٢) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (٢٦، ٢٧).

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلبًا للشهادة، ومما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: «ولا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان، واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزًا عظيمًا...»[(١)].

٢- التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علميًا وروحيًا شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي وجعل أهل جبال أطلس في تينمل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي والتعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممتلكات، حمل عليها الكافة ووضع تعازير قاسية لعقاب من يتعدّاها وربط المجتمع الجديد بوشائج القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله: (ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين»[(٢)] وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدّجال، ومنكم الذي يؤمُّ بعيسى، وحدَّثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..)[(٣)].

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدي (لهم تودُّد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يومًا من طرادٍ ومثاقفة ونضال...)[(٤)].

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول: (قبره بالجبل معظم، مات كهلاً، وكان أسمر ربعةً، عظيم الهامة، حديد النظر مهيبًا، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفسٌ ترى إراقة ماءِ الحياة دون إراقة ماء المحيَّا، أغفل المرابطون ربطه وحلّه، حتى دبَّ دبيبَ الفلقِ في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفًا بزيت، أو قليل

(١) ابن تومرت: رسالة إلى الموحدين ص (٩) نقلا عن كتاب عبد المجيد النجار ص (١١٦).
(٢) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٩٥) الطبعة السلفية.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٩).
(٤) انظر سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٩).

سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يومًا، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بإحراق جميعه، وقال: من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغي الآخرة، فجزاؤه عند الله، وكان يتمثل كثيرًا:

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد [١]

ثانيا: المنهج السياسي:

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ، ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويحمّلهم المسئولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف وتوّج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له: (إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولاحاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه) [٢].

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن «خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه، وأعلن الجميع بخلعه» [٣] وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبل ثلاثة، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

١- الحملة النقدية ضد المرابطين:

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخًا نهائيًا وترسيخ ولائهم له: «فكل من أطاعهم في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكلّ من أعانهم من القبائل

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٥٤).
(٢) تاريخ الدولتين للزركشي (١٢١).
(٣) نظم الجمان لابن القطان (ص٢٩).

فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتـدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوهم على جهاد الكفرة فخلّوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسنة رسوله، وإن عانـدوا الحـق وأصـرّوا علـى معونـة أهـل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم»[١] وشـن حربًـا نفسـية علـى حكـام وأمـراء واتباع المرابطين في رسالته إليهم «إلى القـوم الـذين اسـتزلهم الشـيطان، وغضـب علـيهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا مـن تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمـن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنـتم في عافيـة، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثـاركم، ونكـدر ديـاركم، ويرجـع العـامر خاليًـا، والجديد باليًا، وكتبنا هذا إليكم إعذارًا وإنذارًا، وقد أعـذر مـن أنـذر، والسـلام علـيكم سلام السنة لا سلام الرضى»[٢].

وهكذا شرع ابن تومرت في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين وحاول أن يعـزل الحكـام عـن عامـة النـاس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيرًا للنفوس منهم وتمهيدًا لنزع ولائهـم ثـم لمعـاداتهم وإمعانا منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورمـاهم بهـا كـ (المجسـمون) و(الزراجنة) تشبيهًا لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجـان لأنهـم بـيض الثيـاب سود القلوب، و(الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم[٣].

٢- التنظيم السياسي:

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسيًا بحيث يضم ويـنظم ويرتـب جميع أفـراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولائهم للدعوة ويمكن مـراقبتهم والإشـراف علـيهم ولـذلك نظـم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتهـا الملقـاة علـى عاتقهـا. وقـد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة. كانـت الطبقـات الثلاثـة الأولى،

(١) رسالة إلى الأتباع لابن تومرت (ص٢).
(٢) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخطيب.
(٣) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (٨٥).

أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتسيير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية[١].

وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها:

الجهاز الأول: جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضمّ مجموعة من القبائل وهي: هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل[٢] قال ابن الخطيب: (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعدّاها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده»[٣].

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضمانًا للمزيد من النجاح واجتنابا للعفوية والفوضى، وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفلّ بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ العقدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفلّ بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث.

---

(١) سقوط دولة الموحدين (ص٤٠).
(٢) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص (١٢٠، ١٢١).
(٣) الحلل الموشية لابن الخطيب ص (٨٠).

أما الجهاز الرابع فيبدو أنه وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة. وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: «أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدوّ»[(١)].

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمدابن تومرت ولذلك أسس بديلاً سياسيًا اجتماعيًا تربويًا ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين[(٢)].

لقد أظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرى، وقبض بيد من حديد على أنصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطانًا كبيرًا وحكمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل، وسيطر بواسطتهم على القبائل، وجعل الجميع عيونًا له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء مما جعل ابن تومرت مطلعًا على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطاعًا ومرهوبًا في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقا، وتخاف منه خوفًا شديد...) [(٣)].

٣- تعبئة الأنصار:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جدًا حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى وفي أسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة[(٤)]، ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنهم على درب الحق، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبئته لأنصاره على:

أ- غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلك خاطبهم بقوله: (ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا

---

(١) الحلل الموشية (ص ١٢٢).

(٢) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص (١٢٢).

(٣) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص (١٨١).

(٤) يعني: دولة المرابطين.

يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة...»)[(١)].

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لا يكل ولا يمل في تفنيد كل ما وجهه المرابطون من حملة مضادة ضد دعوته البدعية وقاد ابن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ما خاطب به أصحابه قائلاً: «واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتبهوا وفقكم الله لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها وحرّفوا الكلام عن مواضعه. ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفًا ببغيهم..» [(٢)].

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، وأقنع العقول، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على أتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

ب- الثقة بالإمام:

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكل وملبس ومسكن، ثم جعل ثقة أنصاره به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع أمام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضاربًا في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعالقة بالإمامة أن

---

(١) المعجب للمراكشي (ص ٢٥٦، ٢٥٧).
(٢) رسالة إلى الاتباع ص (٤) وأيضًا الرسالة المنظمة ص (١٠٨).

يرسخ ثقة أتباعه به، وأن يضمن ولاءهم الدائم، وطاعتهم المطلقة[١]، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة، وأقنعهم بأنه القيادة المثلى لهذه القبائل[٢].

٤- المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، أصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين: «قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فأستعين بالله على قتلكم...)[٣]. وكانت هذه الخطوة تمهيدًا منه نحو قتال المرابطين، وحرص على ترسيخ عقيدة الجهاد وحبه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فُرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لا عذر لأحد في تركه ولا حجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة»[٤].

ولما بذل ابن تومرت جهده في إعداد أصحابه إعدادًا عقديًا جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيرًا الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ومن أعالي جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلامية التشويهية على المرابطين واصفًا إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنة، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل ابن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم، وما فعله ينتان في حقيقته هروب وخوف من لقاء الموحدين. وتعاظم خطر ابن تومرت واستمر

---

١) تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص (١٢٧).
٢) انظر: معالم في تاريخ المغرب د. حسين مؤنس ص (١٧٧).
٣) الحلل لابن الخطيب ص (٨١).
٤) الرسالة المنظمة (ص ١٠٥).

علي بن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لاستئصال شأفته ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي اسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعدادًا كبيرة منهم وغنموا حملتهم. وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضًا هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحدين[١].

وكان ابن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: «انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم»[٢] وكان ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيرًا ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقرًا منيعًا هو مدينة تينمل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: «لا يعلم مدينة أحصن منها، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراكش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»[٣].

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه ابن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظم ثقته بنفسه وقوته، فأرسل إلى علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد، فيما يلي

(١) انظر دولة المرابطين تأليف سلامة محمد سلمان ص (١١٣).
(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين د. حمدي عبد المنعم ص (١٠١).
(٣) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص (١٢٩).

نصها: «من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذي غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين، لاتغتروا فإن المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا إله إلا الله، وأنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن»(١) لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين.

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب.

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم، منها الإستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة. كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات جنود المرابطين منهارة، فكأنوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق ص (١١).

تومرت وتبايعه، بعد ما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدي. كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام(١).

وازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته وإما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: «إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فإن أديتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم وعلى قتالكم حتى نمحو آثاركم إعذاراً وإنذاراً، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى) (٢).

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت إستراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة، فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي - الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم أن يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت وكان الونشريسي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء من شعر أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين فدفعها إلى الونشريسي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية. ثم قال اعرض عليّ أصحابك

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١١٤).

(٢) انظر: دولة المرابطين ص (١١٥).

حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها قال: «يا ملائكة الله إن عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت» فقال من فيها: صدق. فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز، وأخذ الونشريسي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر[١]، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره[٢].

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرهم ذلك وسلاهم على أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش. وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلاع، على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينمل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفًا منهم الفرسان والغالب منهم رجّالة وقدم عليهم الونشريسي ووجههم نحو مراكش فبدءوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م. وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا

(١) الغمر: هو الغير المجرب.

(٢) انظر ابن خلكان (٦/ ٥٢ ، ٥٣).

معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يومًا على أرجح الروايات[1]. وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الموقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المائة محصورًا داخل المدينة، فخاطب أمير المسلمين قائلاً: (ما نعير إلا بالمقام تحت الحصار). فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم في الأندلس، وبين لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وأن البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصروا رماحهم، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رءوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار[2] وأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالبا المدد والعون، فجاءت إليه النجدات من كل صوب، وكان أعظمها القادم من سلجماسة بقيادة واليها وانودين بن سير. وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات، وقدم أبو محمد بن سير قائدًا عامًا للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف[3].

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية

---

(١) انظر: دولة المرابطين (١١٨). (٢) المصدر نفسه (ص ١١٩).

(٣) انظر: عصر المرابطين والموحدين، لعنان (ص ١٨٨).

الخصم قبل مقارعته بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم محذرًا إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجب أي طرف لآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة. وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى البحيرة(١) وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ففر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمائة ما بين فارس وراجل. وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبد المؤمن كان قد واراها فورًا فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء(٢).

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينمل. وعندما وصل إلى هيلانة(٣) استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضًا وقتل من أتباعه نحوًا من اثني عشر ألفًا فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينمل وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن فقال هو حي، فرد معزيًا الأمر باق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن ورابيل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان إلى تينمل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له أبكر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما. ويعلل البيذق(٤) ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

---

(١) نظر: الكامل في التاريخ (٦/ ٥٦٥).
(٢) ابن خلكان (٥/ ٥٣).
(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن في القرب من مراكش.
(٤) أخبار المهدي ابن تومرت ص (٣٩،٤١).

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله... وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفسًا في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة. ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سويًا إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون. ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر. إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم، لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه[(١)].

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ، ١١٣٠م[(٢)] وتذكر المصادر

---

(١)، (٢) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٢).

الموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعدًا إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذرًا إياهم من الفرقة والتناحر، وأمَّر عليهم عبد المؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعًا لربه(١).

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلمًا إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينمل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سرًا بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي(٢).

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيمًا ومرشدًا روحيًا لها، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادة في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم، فيساعده في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها ما يريد فانقادت له مبهورة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٢).

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨١).

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله وما عششت في ذهنه من الأساطير والانحرافات حتى عاد غريبًا عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكًا بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعًا عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جورًا.

ومن افتراءات ابن تومرت أنه ادعى أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وأن من لا يؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه[1]، وأحدث في آذان الصبح (أصبح ولله الحمد)، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب[2].

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين وقد بينت ذلك[3].

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلنًا في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع، كما أسقطه من السكة ومن الخطبة، وقال لا ندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق[4]، وبناء على هذا الإعلان حذف اسم «المهدي» من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ «القرآن حجة الله» في المركز، وفي الهامش نقش اسم «خليفة الموحدين المأمون»[5]، إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الإفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٤)

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (٢١٦).

(٣) انظر: الفتاوى (١١/ ٤٩٢).

(٤) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٥).

(٥) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس (ص ١٩١) رسالة ماجستير.

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولـة المـرابطين، تلـك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهـاد النصـارى في الأنـدلس هدفًا أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسـلمين تتهـاوى تحـت مطـارق الفونسـو السـادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابـن تـومرت حتـى أخـذت تشـغلهم بعـض الشـيء عـن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام مـن الأنـدلس أمثـال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازديـاد ضـغط النصـارى علـى المسـلمين في الأندلس، وبدأوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى في هـذا الوقـت اسـتطاع ابـن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الـذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكًا[1].

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين سـاروا علـى مـنهج أهـل السـنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أما الذين كـذبوا وسـفكوا الـدماء وهتكوا الأعراض، وكفّروا المسلمين، الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندما نضفي على المفسدين ثـوب الإصـلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام.

إن حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسنة نبيهـا واستوعبت فقه التمكين وأخذت بأسبابه وحرصت على تنفيذ شروطه الجديرة بالدراسـة الواعية من أجل إخراج فقه للعـاملين في مجـال الـدعوة الإسـلامية وإنهـا لكفيلـة بـربط الحاضر بالماضي وجديرة بـإثراء واقعنـا بفقـه بنـاء الـدول وأسـباب النهـوض وعوامـل السقوط وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق.

* * *

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٦) لقد استفدت مـن كتـاب تجربـة الإصـلاح في حركـة المهـدي ابـن تـومرت للأستاذ عبد المجيد النجار ودولة المرابطين للأستاذ/ سلامة محمد سـلمان الهـرفي في مبحـث المـنهج التربـوي والسياسي والعسكري عند ابن تومرت وغيرها من المراجع وهذا للأمانة العلمية.

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده

المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه:

عبد المؤمن بن علي بن علوي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي، النفيسي، المغربي، ولد بأعمال تلمسان. وكان أبوه يصنع الفخار[1].

قيل: إنه قال -أعني عبد المؤمن-: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، والكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي[2].

وكان الخطباء إذا دَعَوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمه في النسب الكريم، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربعمائة[3]، ووصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عمم[4]، تعلوه حمرة، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوري الصوت، فصيحًا جَزْل المنطق، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة، وكان في كبره شيخًا وقورًا، أبيض الشعر، كثّ اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شَثْن الكف، أشهل العين).

أ- لقاؤه بمحمد بن تومرت:

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن، فحدَّثه وانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم. قال: قد وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه، وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبل[5]، وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها … فكلنا بك مسرور ومغتبطُ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٦).

(٢) المصدر نفسه (٢٠/ ٣٦٦).

(٣) المصدر نفسه (٢٠/ ٣٦٧).

(٤) عِظَمُ الخلق في الناس وغيرهم.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٨،٣٦٧).

الســـن ضـــاحكة والكـــف مانحـــة والـنفس واسـعة والوجـه منسـبط [١]

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول، لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس[٢].

ب- بيعته:

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان ٥٢٤هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة، البيعة الخاصة، لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ وقيل ٥٢٧هـ وذلك بجامع تينمل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة إلى مالمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته[٣].

وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته التي أشار فيها إلى تولية عبد المؤمن من بعده: (استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبد الله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إن الله - سبحانه، وله الحمد - مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم بحقيقة توحيده، وقيض لكم من الأبطال، فهداكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيُورثُكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأرُوه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يدًا

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٣).
(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي للغنيمي (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم (٤/ ٢٠٨).

واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقرتكم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجُلاً منكم، وجعلناه أميرًا بعد أن بلوناه، فرأيناه ثبتًا في دينه، متبصرًا في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبد المؤمن - فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه فإن بدّل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت)[١].

وقال ابن خلكان[٢]:

ما استخلفه بل أشار إليه وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد المراكشي[٣].

كما أن هناك سببًا آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ألا وهو أن عبد المؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حدًا لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما إن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطيع بادئ الأمر، أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرءون عليه وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن، لمّا جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك[٤].

ويروي البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ستة وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦هـ)

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٩).
(٢) انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٩).
(٣) انظر: المعجب ص (٢٨٥، ٢٨٧).
(٤) انظر: سقوط الموحدين ص (٥١،٥٢).

فيقول: «وفيها جاء ابراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت عند ذلك الخليفة...»[(١)].

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ووضع نظامًا جديدًا يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقادًا راسخًا في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءًا من هدفه. لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحًا، فهذا خليفة الموحدين يقُتل أخوه ويُمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة وكل من في الأرض عبيد لهم، لا شك أن ذلك الحدث أثر في عبد المؤمن بن علي.

ثانيًا: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيدًا للمعركة المقبلة الفاصلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أيامًا ثم ارتحل عنها[(٢)]، غير أن ابن القطان[(٣)] وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبد المؤمن من تينمل في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية يقودها بدر بن

(١) اخبار المهدي للبيذق ص (٩٣).
(٢) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبد المنعم ص (١١١).
(٣) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبد المنعم ص (١١١).

ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني[١]، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفًا من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عددًا من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس. رحل عبد المؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونة بنت يتنان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينمل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها، كما استولى في نفس العام ٥٢٦هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جنجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضًا افتتح الموحدون حصن تاسيغيموت أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية لجئوا من هزرجة قوامها مائتا فارس وخمسمائة راجل، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجئوا إلى الحيلة فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه، فاقتحموه ليلاً، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينمل حيث ركبت على باب الفخارين[٢].

ثم عاد عبد المؤمن إلى تينمل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبد المنعم ص (١١١).
(٢) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (١١٣، ١١٤).

منافسي عبد المؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة وتتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينمل غازيًا، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينمل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينمل، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينمل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملا جثته إلى تينمل حيث صلبت، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها[1].

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعًا للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة خصوصًا وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور الذي مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي بن يوسف.

وفي عام ٥٢٦هـ حدث أمر عظيم يحمل في طياته مغزى عظيمًا ومبشرًا بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي[2] ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان في بداية أمره شقيًا وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل، وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين. وفي

---

(١) المصدر نفسه (ص ١١٤).

(٢) انظر: دولة المرابطين (ص ١٢٧).

عام ٥٢٨هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام ٥٢٩هـ سار عبد المؤمن لغزو بني بيغز وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يومًا، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينمل واستمر الصراع من عام ٥٣١هـ، ٥٣٢هـ وفي هذا العام ٥٣٢هـ تحرك عبد المؤمن من تينمل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من القرمدة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبد المؤمن بن علي وطلب منه عسكرًا لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيى بن أبي بكر، فأمده بقوة موحدية، أغار بها على محلات عسكر المغرب، وألحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين، فأسند الأمير سير قيادة القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفي، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجده. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير بن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غماره، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن. وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة[1].

وفي عام ٥٣٣هـ تحرك عبد المؤمن بن علي من تينمل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، وكان علي بن يوسف قد قتل عددًا من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سببًا في دخولها

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (١١٧).

في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهرًا وثلاثة أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مددًا لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذابًا للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحًا تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما توسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام ٥٣٤هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين وانضمت إليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحًا.

وفي عام ٥٣٥هـ (١١٤٠-١١٤١م)، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمى السيميصي يقع في أرض كدميوه شمال تينمل وقيل إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيذق، نشوب معركة بين الجانبين وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة

المرابطين وعودة الروبرتير جريحًا إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى الظرور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير في فلوله جريحًا إلى مراكش، وعاد عبد المؤمن إلى تينمل[1].

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام - ٥٣٥هـ - وحاصر حصن تينلين، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين بن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها إيرمناد، وتاسلولت وتيونوين وإيجلي وغيرهم وفي نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيغايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش.

أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها «تما كونت» ابنة ينتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها، وذكرته بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان مارًا بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينمل رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدين على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفًا القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية ٥٣٥هـ ويورد البيذق وكان شاهدًا عيانًا لأحداث هذه الفترة وصفًا دقيقًا لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينمل في حشود ضخمة متجهًا نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وإنزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في إثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مرورًا ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو «واويزغت» دون أن

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس (ص١٢٠).

يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين. ثم تقدم الموحـدون إلى «داي» فـولى حاكمهـا المرابطـي علـي بـن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعـة للموحـدين وواصـل الموحـدون زحفهـم صوب «تازاكارت» ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعـة واومـا، ثـم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها، فدخلها الموحدون، واتخذها عبد المؤمن قاعـدة لقيادته، وجه منها عددًا من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقـت أرسـل بعض أشياخ الموحدين إلى تينمل يبشرون أهلها بانتصارات عبـد المـؤمن. وهكـذا دخـل أهل فازاز جميعًا في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في أزرو حيث تزوج من إحدى نسائها. واصل عبد المؤمن زحفه، فخرج من أزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميـات كـبيرة مـن المـؤن والعتـاد، ثـم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميـع المناطق الواقعة جنوبي آزرو، وعندئذ اتجه نحو سلجماسة، فبادر واليها أبو بكر بن صـارة بالدخول في طاعة الموحدين. وفي أوائل عام ٥٣٦هـ قامت سـرية موحديـة علـى رأسـها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشـمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذه الاثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لاستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحـدون وقتل قائدهم يحيى، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس ثم تقـدم الموحـدون نحـو أرض غياثـة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفـرا، بينمـا عسـكر المرابطـون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفوا.

ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشـتاء وكـان شـتاءًا قاسـيًا تعرضـت فيـه المنطقـة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسـحت السـهول والقـرى والوديـان وقاسـى بسببها العسكران أيما عنـاء وشـدة، إلا أن وقعهـا علـى المـرابطين كـان أشـد وأنكـى، حيـث تساقطت الخيام، وعامت أوتادهـا لرخـاوة الأرض، وغرقـت الـدور وهلـك عـدد كـبير مـن عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلـة الأقـوات والوقـود في كـل مـن المعسـكرين وبلـغ سعر الشعير في معسكر الموحدين وفقا لقول البيذق ثلاثة دنانير للسطل، وبلـغ الحطـب عنـد

تاشفين دينارًا للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الوجلة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحدين، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرسي رهان، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له «تازغدرا» أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتير على أثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى «تاغزوت» ومنها إلى بني مزكلدة، ثم إلى ايلانة ثم إلى ايجن. وفي ايجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادئ ابن تومرت، وطاعة عبد المؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى «بجدار نمضى»، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مرورًا بتا مقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن وراءهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذي وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تمسامان، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقا إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن.

وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات

الأولى: بقيادة عبد الرحمن بن زكو، وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه.

والثانية: بقيادة الشيخ أبي ابراهيم إسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان.

والثالثة: بقيادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر، ومحمد بن يحيى بن فانو،

ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على قوى المرابطين وإن كانت كلفتهم كثيرًا طوال حياة أمير المسلمين علي بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة ٥٣٧هـ بداية لنهاية دولة المرابطين[١]، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغًا في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس ومما زاد الأمر سوءًا أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (٥٣٨هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضًا حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م تمكن عبد المؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الروبرتير ودخل تلمسان. وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي ١٤ ذي القعدة ٥٤٠هـ/ دخل الموحدون فاس، وفي ١٨ شوال تمكنوا من دخول مراكش[٢].

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية[٣] ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجدب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ووجه

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس _ عصر المرابطين ص (١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤).
(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨٣، ٧٨٦). (٣) مؤلفه مجهول.

كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واحتيل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزًا والكفر مقهورًا والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)(١).

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

ثالثًا: اهتمام الموحدين بالأندلس:

بعد أن احتل عبد المؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والى الأندلس، فلقيه بالجزيرة الخضراء وطلب منه واليًا على سبتة، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي، فقام بأمر سبتة وشكل حلفًا مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه، فعفا عبد المؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه(٢).

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى واستتب الأمر لعبد المؤمن فوجه نظره إلى الأندلس وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفًا هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام ٥٣٩هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ كذلك قام أحمد ابن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن

---

(١) الحلل الموشية ص (١٢).

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨٨).

قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين فسير عبد المؤمن معه جيشًا بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها برًا وبحرًا، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣هـ ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة ٥٤٩هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية برًا وبحرًا وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون

المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصارًا محكمًا. وحاول الفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، والى إشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدومه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى «العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل». وولى عسكر الفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس، ومات الفونسو في طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢هـ وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القصبة، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها[1].

وفي سنة ٥٥٥هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش[2].

رابعًا: فتح المغربين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام ٥٥٦هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من اختلاف الأمراء وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالعبث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة ٥٤٦هـ من مراكش قاصدًا مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩١).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧٩٢).

المهدية في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علـم بقـدوم عبـد المـؤمن بـن علي خرج للقائه فتلقاه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقيـة ثـم سـار عبـد المـؤمن نحـو بجاية، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن، فـانهزم هزيمـة نكـراء، ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيى ألا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحـر إلى صقلية لقصد الانتقال منها إلى بغـداد، وحمـل معـه مـا اسـتطاع مـن الـذخائر والجـواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حمـاد معقـل الصـنهاجيين الأعظـم، وحـرزهم الأمنـع، واقتحمهـا عنـوة، فخربهـا، وأضـرم النـار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم بالـدفاع عنهـا وكـر عائدًا إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنـه، فأمنه وصحبه معه إلى مراكش في سنة ٥٤٧هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سـيلا سـنة ٥٥٨هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة. أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواتـه الأولى إلى إفريقيـة، كمـا صـحبه في سـنة ٥٥٤ في غزوتـه الثانيـة، فحاصر معه المهدية، ثم دخلها وسكن بهـا ثمـان سـنوات إلى أن اسـتدعاه أبـو يعقـوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة ٥٦٣هـ.

ثار عرب الأثبج ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبـد المـؤمن بـن علـي مـن أجـل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مددًا، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهـم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد مـن كـبرائهم طـائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكـان لـذلك أكـبر الأثـر في دخـول العـرب في طاعته، فاتخـذ مـنهم جنـدًا وأقطـع رؤسـاءهم بعـض تلـك الـبلاد ثـم إنـه اسـتنفرهم إلى الغـزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز إلى الأندلس في سـنة ٥٥٥هـ أدخلـهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلـي شـريش وأعمالهـا، وقـد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصـور، ويـذكر المراكشـي أن بـالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى الرجالة[1].

---

(١) المراكشي ص (٢٢٦).

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢هـ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين(١).

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز بن خراسان، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من مراكش في جيوش لا تحصى في ١٠ شوال سنة ٥٥٣هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهدية، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة ٥٥٤هـ. وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأربس من بني فثانة العرب ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضًا، وافتتح بلاد الجريد كلها(٢)، وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقًا إلى السوس الأقصى غربًا، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة(٣).

خامسًا: سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للساسة لضبط نظام الدولة:

أ- عندما استولى عبد المؤمن على مراكش، قتل المقاتلة، وكف عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى وقال: إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مخيركم بين ثلاث، إما أن تسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩٥).
(٢) المراكشي، ص (٢٣٠).
(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩٩).

أخرى بدار الحرب، وخرب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وأنفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداء بعلي وليري الناس أنه لا يكنز المال، وأقام كثيرًا من معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثًا فاقتلوه، وأزال المنكر، وكان يؤمُّ بالناس، ويتلو في اليوم سبعًا، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يدع مشركًا في بلاده لا يهوديًا ولا نصرانيًا، فجميع رعيته مسلمون[(١)].

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظمًا موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عددًا من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دومًا، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعًا لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها ووضع فيها سفنًا كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[(٢)].

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظامًا جديدًا للدولة، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته. وكان أشد مايعنى به عبد المؤمن - وهو من أعظم قادة عصره - تنظيم شئون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته، نهضة إحياء شاملة وإليك وصفًا لنظام سير الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ (٢/ ٥٠).

عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين(١).

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعًا، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد صُنع من خشب رنّان، فكان يُسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضُرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطويًا أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكونًا من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتُخصصّ لغذاء الجند، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفًا من المشاة، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء، أو ضيق في المكان، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدءوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جيادًا مطهَّمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثيابًا فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان ابن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة، تبركًا وتيمُّنًا، وقد وضع في - صندوق - بديع الصنع، محلًّى بصفائح الذهب، مرصع بأروع اللآلئ والأحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق إن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك إشبيلية، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيه جميعًا وتكدّست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن، والى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف،

(١) انظر: الأرك د. شوقي أبو خليل ص (٢٩).

ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون[1] الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون[2]، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاء والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يُقتّر على أحد منهم.

يستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

١- أن عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

٢- كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

٣- وكان يتبع نظامًا جديدًا في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.

٤- وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغني عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساسًا لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية الغنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً - تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها.

---

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولدًا.

(٢) القرن هنا:آلة موسيقية تعتمد على النفخ، تشبه تمامًا القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسيَّ والنُّشَّاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار[1]، وعزم عبد المؤمن على تغيير نظام الطبقات ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر الغير موالية له وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد. ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها، وخافه الموحدون خوفًا عظيمًا وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصًا كبيرًا. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريسي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيى ابن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي آصناك، فقد توفي سنة ٥٣٦هـ وقتل عبد الله يعلى بن ملوية سنة ٥٢٧هـ بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ إنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكاك، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة (٥٤١هـ).

إذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقيًا على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبد المؤمن بن علي وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين، وغيرها من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات[2].

وبعد أن تخلص من أكثر معارضيه شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفًا ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة.

(١) انظر: معركة الآراك ص (٣٢).
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٥٨).

لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات وإحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله. وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء. هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسمًا وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي وأعلن عليهم النظام الجديد وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربعة عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات.

فالطبقة الأولى:

هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازى والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثانية من فتح وهران إلى هلم جرا.

من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاء نهائيًا، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شئون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الطبقات الأربعة عشر، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادي الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠م.

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام ابن تومرت ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى، وجعل مكانة الجميع

على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشرة الأخيرة في النظام الملغي، كسبًا معنويًا كبيرًا وفائدة مادية جليلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما أن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدي واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية:

فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤هـ وحتى سنة ٥٣٨هـ. سواءً كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختيارًا أو اجبارًا وقسرًا بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضا بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين. وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أتيحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضا والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدي، بل في الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة:

تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحًا الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم إن عبد المؤمن لما افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على إمارة بني حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذي وقفوا في وجهه. وتمكن

الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة. وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفًا من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلاً: «وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة: تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجاوبًا لهم: نحن نصل إليكم. وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام ٥٤٧هـ»[١].

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها. كما أن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة[٢].

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرضهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال:

أقيموا إلى العلياء هوج الرّواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْد الصواهلِ
وقوموا لنصر الدين قومة ثائرٍ ... وشدوا على الأعداء شدة صائلِ
فما العز إلا ظهرُ أجرد سابح ... وأبيض مأثور وليس بسائل
بني العمِّ من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابنِ باسل
تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغزو نِيةٌ ... عواقبها منصورة بالأوائلِ
هي الغزوة الغراءُ والموعدُ الذي ... تنجَّزَ من بعدِ المدى المتطاولِ

---

(١) البيذق أخبار المهدي ص (١١٦).
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠).

بهـا نفـتح الـدنيا بهـا نبلـغ المنـى بها نُنْصِفُ التَّحقيقَ من كلِّ باطلِ
فـلا تتوانـوا فالبـدارُ غنيمـةٌ وللمُدْلج السّاري صفاء المناهلِ[1]

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه، ولما قال فيه التِّفاسي قصيدته:

ما هزَّ عطفيه بين البيض والأسلِ مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار[2]، ولما سار عبد المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق، وسمّاه جبل الفتح، فأقام أشهرًا، وبنى هناك قصورًا ومدينة، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشدًا:

ما للعدى جُنَّةٌ أوقى من الهرب أين المفرُّ وخيلُ الله في الطلب
وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سهامُ الله بالشُّهُب
حدِّث عن الروم في أقطار أندلسٍ والبحر قد ملأ البرَّين بالعَرَبِ

فأعجب بها عبد المؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء[3] وبعد أن أطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتئ يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتوليه أحد أبنائه وليًا لعهده[4].

وفي عام ٥٤٩هـ أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد وليًا لعهده وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: «سؤلكم أن كثيرًا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣)
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣).
(٤) انظر: سقوط الموحدين (ص ٦٠).

وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتهـا... وكانـت العشـائر العربيـة الهلاليـة والقبائـل الشـرقية والصنهاجية ومن معها، حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تـزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حينًا بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطنـاب السـعادة المنيفـة بهـم علـى مقتضى الآمال والإرادة، صـرحوا لأول لقـائهم بمـا أضـمروه، وأبـدوا سـرهم المكنـون وأظهروه. واعلموا أن محمدًا - وفقه الله - هـو الـذي ارتضـوه لحمـل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم... فرأينـا بعـد استخارة الله تعالى أن نجمع في هـذا الموضـع المبـارك مـن وصـله مـن شـيوخ الموحـدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك الأمـر المسئول ونعارضـهم فيـه علـى الجملـة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أقصد وذكروا في الأمر على ما أتوخى فيه وأعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما أعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى - أعزه الله بتقواه - هذا أمر نحن أولى بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتـأميره علينـا وتحكيمـه. ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه. فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعيا.. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلـم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنـا معقود وفي نفوس جمهورنا موجود وهو الذي لـيس عليـه مـن آمالنـا مزيـد... وابتـدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصد اعتقادها على أكرم وجـه وأسـناه، وتتـابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم وسرى النعيم بها في أبشـارهم ومنـاتهم، وباشـرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل»[(١)].

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط:

أولها: أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم.

وثانيتهـا: أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية. وهـي

(١) انظر: سقوط الموحدين (ص ٦٢).

التي لم تكتف بإثارة الموضوع، بل وألحت عليه. ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدي رأيها حولها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي أخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثالثة: هي أن الموحدين وأشياخهم لما جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه. والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة المرابطين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد وتقديم البيعة لولي عهده.

النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر واقع ولذلك بادر بإظهار الرضا عن هذه البيعة وكان أول المبايعين لابن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثيًا في عقبه وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثيًا.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحدي بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحدي في المعركة. وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار في الموحدين الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدي وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك وألقي القبض على يصلتين وقتل في

سبتة عام ٥٤٦هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام ٥٤٩هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراكش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراكش أفشلوا تلك المحاولة الفاشلة وكان عبد المؤمن بعيدًا عن مراكش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلاثمائة شخص وقتلوا جميعًا وأعدم أخوا ابن تومرت وفي عام ٥٥٥هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته وأمرهم أن يأتوه ركبانًا ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة ٥٥٧هـ إلى مراكش في تعداد تجاوز الأربعين ألفًا وفرح بهم عبد المؤمن فرحًا عظيمًا وأنزلهم في مراكش وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدمًا لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثيًا ساهم في إيجاد تنافس شديد وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد، بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة[1]. لم يكتف عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا

---

(١) سقوط الموحدين (ص ٦٢، ٦٨).

مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكلات التي ساهمت في إضعاف الدولة، وكانت سببًا في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبد السلام الكومي(١).

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته:

١- لما نزل عبد المؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجدًا، ثم رفع وقد بلّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يعديهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال أحدهم وكان شابًا: تأخذوا ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشابُّ كلما أعيا، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجذاف، فما عدَّى إلا بعد جُهد فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخران ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي(٢).

٢- ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: (كان ملكًا عادلاً سايسًا عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سبعًا من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الاثنين والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له، وكان سفاكًا لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا. فلم ينكر ذلك عليهم فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ... ماذا يضرك أن تكون إلها
الفظ بها فيما لفظت فإنه ... لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآهما وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا. فكان عبد المؤمن يتزيا بزي العامة ليقف على الحقائق فوقعت عيناه

---

(١) المصدر نفسه (ص ٦٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣).

على شيخ عليه سيما الخير فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له اصدقني أنت قائل البيتين؟ قال: أنا هو. قال: لم فعلت ذلك؟ قال قصدت إصلاح دينك. فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها. ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لا تحفلـن بمـا قـالوا ومـا فعلـوا إن كنت تسمو إلى العليا من الرتب

وجـرد السـيف فيمـا أنـت طالبـه فمـا تـرد صـدور الخيـل بالكتـب [١]

٣- بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقًا حتى البحر المحيط غربًا، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعيين ابنه وليًا لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورءوس الفتنة، وخضّد شوكة أفراد بيت ابن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقويه ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة[٢].

يقول ابن صاحب الصلاة:

(تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: «أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكدسًا كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربته الأذهان ولا تقدم

(١) انظر: شذرات الذهب (٤٠/ ١٨٣).
(٢) انظر: سقوط الموحدين (٧٧).

بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين...)[١].

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة ألف راجل ومائة ألف فارس.

وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد أسبانيا:

١- **الجيش الأول:** يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

٢- **الجيش الثاني:** إلى فرناند ودي ليون.

٣- **الجيش الثالث:** إلى الفونسو الثامن ملك قشتالة.

٤- **الجيش الرابع:** يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفاءه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨هـ[٢].

قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة: (فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازمًا شجاعًا، جوادًا معظمًا للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان

---

(١) ابن صاحب الصلاة ص (٢١٣، ٢١٥).

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٧٨).

سفاكًا للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...)[١].

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعي - أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنبًا إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها وكان ذلك تكتيكًا من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جادًا في الالتزام الحرفي لدعوة ابن تومرت، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له مما يعرض دولته للخطر[٢].

* * *

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤).

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس (ص ٥٧٢، ٥٧٣).

المبحث الثاني

أبو يعقوب يوسـف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شابًا مليحًا، أبيض بحُمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحًا، حلو المفاكهة، عارفًا باللغة والأخبار والفقه، متفننا، عالي الهمة، سخيًا، جوادًا، مهيبًا، شجاعًا خليقًا للملك[1].

أولاً: علمه وبيعته:

أ- علمه:

قال عبد الواحد بن علي التميمي:

صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمة، جوادًا، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبا بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لا يصبر عنه، وسمعت أبا بكر بن يحيى الفقيه، سمعت الحكم بن أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يُطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة؟ فخفت، وتعللت، وأنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلى ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حُجج أهل الاسلام فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب[2].

وقال عنه العلامة شوقي أبوخليل:

(أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس حفظًا لألفاظ القرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٩).

(٢) انظر المصدر نفسه (٢١/ ١٠٠).

غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمـة، سـخيًا جـوادًا، اسـتغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيـه بعـد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلـو همتـه إلى تعلم الفلسفة والطب .... وجمع مكتبة، كان ما فيها قريبًا مما اجتمـع للحكـم المستنصـر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد).

ب- بيعته:

يرأى الأستاذ الدكتور مراجع عقيلة الغنائي أن بيعة يوسـف بـن عبـد المـؤمن تمـت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحـزب المـوالي لهمـا وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظم كتلة من الموحدين ترتبط مصـالحهما بـه، ولـذلك أصبح عليـه مـن السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكـم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمـر، بجعـل الإمـارة لأخيـه يوسـف بـدلاً منـه وهـو الشخصية ذات القوة والنفوذ أنما كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر والذي يـرجح الفـرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف، أن بعضًا مـن أبنـاء عبـد المـؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السـيد أبـو سـعيد عثمـان والـي غرناطة، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجايـة، أن يبايعـا لأخيهمـا بالأمـارة. ولـذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يسمى باسم أمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير. كما أن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا[1]، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأنـدلس، وأعطيـت الجنـود الأمـر بـالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحـدين[2]،

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص ٨٥.

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص ٨٥.

فابن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحدًا بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقراءة الحزب واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم.....)[١].

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين[٢].

ثانيًا: سياسة يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

١ - المحور الأول:

استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

٢ - المحور الثاني:

العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.

٣ - المحور الثالث:

المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة (ص٢٣٣، ٢٣١).

(٢) انظر: سقوط الموحدين ص٨٨.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.

ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد واليًا للمرابطين على إفراغة[1].

تولى محمد بن سعد بن مردنيش: حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ الموافق ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسية بالتنازل لابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوبًا.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصارى وإماراتها ضد الموحدين وكان غرض الإسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصمًا عنيدًا للموحدين،، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو ألا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانيًا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول.

ولما أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، ومعظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة بعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ

---

(١) انظر: سقوط الموحدين (٨٩).

الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها، بل بدأ الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقًا في البحر، وارتكب الكثير جدًا من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام (٥٦٧ هـ)، وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية[(١)].

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين:

لقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الإسبان أولاً ثم أمراء الأندلس ثانيًا، ثم المغاربة ثالثًا، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، فلقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها[(٢)].

ثالثا: الثورة في المغرب الأقصى:

وفي عام (٥٥٩ هـ - ١١٦٤م) قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة

(١) انظر: سقوط الموحدين (٩١،٩٠).

(٢) انظر: سقوط الموحدين (ص٩٢،٩١).

بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قتل رجالها وسبى نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيشا للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم[(١)].

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ ٥٦٠ هـ، فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسمائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سببا في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصارًا بعد انتصار وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام ٥٦٢ هـ. وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة، حتى التهبت ثورة أخرى في سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (٥٦٣ هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه وجرد جيش موحدي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حفص عمر، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رءوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان والراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية[(٢)].

رابعًا: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى:

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص٧٥).

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص٩٦، ٩٨).

في عام ٥٧٥ هـ واستطاع علي بن المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم الموحدين في قفصة وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه، منها ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدين ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدين وكان قراقوش هذا مرسل من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة أن قراقوش التقوى اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم ولذلك بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام ٥٧٥ هـ واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام ٥٧٦ هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد على ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلما وتائبا وطالبا للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة[١].

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك وأمراء الإسبان، على الطمع في دولة الموحدين، وأحيت فيهم روح القتال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد[٢].

خامسًا: غزو الخليفة الموحدي لبلاد الأندلس:

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى أسبانيا في صفر سنة ٦٥٥هـ/ ١١٧١ م، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفى عام ٥٦٧هـ فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب

---

(١) انظر: سقوط الموحدين (ص١٠٠). (٢) انظر: المصدر نفسه (ص١٠١).

النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م بعد أن بنى جامع إشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسرا على واديها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس في صفر ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ووضع خطة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب على قوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجها إلى بطليوس، معتزما حصار أشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يومًا من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبر القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم علىقلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلاً من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجهًا لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافا لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه غير طبيعي، وأخيرًا ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين[١]، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقا بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيرا طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخا بدمائه[٢].

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين[٣].

---

(١) انظر: الأرك شوقي أبوخليل (ص٤٢).

(٢) انظر: الأرك شوقي ابوخليل (ص٤٢).

(٣) انظر: الأرك شوقي أبوخليل (ص٤٢) .

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في ١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ/ ٢٤أيار (يوليو) سنة ١١٨٤م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عامًا.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينمل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن[1].

سادسًا: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصرا حازمًا على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

١- لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام (٥٦٧ هـ) حيث كان قرار الغزو قد جاء متأخرا عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحدي والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحيانا فهو قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم إنه أثناء مسيره إلى وندة، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

٢- ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرّف له أن يقبل هذا العرض ويحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

٣- كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحدى بدلاً من أن يكون مشرفًا على تسيير دفة المعارك

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٠١).

وهو القائد الوحيد والمسئول الأول، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، فلم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل(١).

٤- لم يكن ولاء المسلمين قويًا لدولة الموحدين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

٥- انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها، ونفيهم من البلاد ووصل إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية، وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسئولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسئول الأعمال المخزنية في إشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلا ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام ٥٧٣هـ(٢).

٦- انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٧١ هـ واستمر لمدة عام تقريبًا، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهرة، ولم يعد

(١) انظر: سقوط الموحدين (ص١٢٠).
(٢) المصدر السابق (ص ١٢٧).

يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها[١].

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي. وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين وقد كان قادما من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١هـ، وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس، أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيء على الرعية وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد[٢]، «وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة»[٣] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين[٤].

٧- تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدي: وهذه القبيلة ينحدر منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة ٥٧٨ هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين:

الأمر الأول :

وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت خوفا من التفاف قبائل الموحدين حولها.

والأمر الثاني:

فإن معدن الفضة يمثل موردًا ماليًا مهمًا لخزانة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب

---

(١) انظر: سقوط الموحدين (ص ١٢٩).
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩).
(٣) البيان المغرب (٣/ ١١٠).
(٤) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص١٢٩).

هذه الخزانة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة ٥٧٨ هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جندًا لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثرًا في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم(١).

٨- ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح للملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف التي تؤدي إلى انهزام النصارى(٢).

٩- استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفًا عدائيًا واحدًا منهم(٣).

هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم، لقد كان يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص١٢٩).
(٢) المصدر السابق (ص١٤٥).
(٣) المصدر السابق (ص١٥٤).

ستملك أرض مصر والعراقا ويجري لحوك الأمم استباقا [١]

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائمًا رجلاً مريضًا وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضًا طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار[٢].

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهمًا بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي[٣].

* * *

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، العبادي (ص١١٥).
(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس (ص١٩٤).
(٣) انظر: نفس المصدر ص ١٩٤.

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً: اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب، كان صافي السمرة جدًا، إلى الطول مائل، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثًا وأكثرهم إصابة بالظن، مجربا للأمور ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات(١).

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين (٢).

أ- إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت(٣)، وجالس الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع(٤).

---

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٤).

(٢) وفيات الأعيان (٧/ ٤).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦).

(٤) نفس المصدر السابق (٢١/ ٣١٣).

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بهـا، فتحـرق، وتهـدّد علـى الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمـع كتـاب في الصـلاة مـن «الكتـب الخمسـة»، و «الموطـأ»، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدّرا قطني وسنن البيهقـي وكـان يملـي ذلـك بنفسـه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعـة [1]. وكـان لا يحـب التعمـق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرّة لعبد الواحد بن علي: (أنا انظر في هذه الآراء الـتي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيّها الحقُّ؟ وأيهـا يجـب أن يأخـذ بـه المقلـد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلاّ هذا، وأشار إلى المصحف، أو هـذا، وأشـار إلى «سنن» أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف)[2] .

قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع على ما دلت أصول أهل السنة والجماعة وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمـود زنكـي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها ودعّم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفيًا واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليـغ رسـالتهم وكذلك القرّاء والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السنة والجماعـة ضـد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققـت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب الثورات الداخلية متواجدة.

لقد نظر الموحـدون إلى الـذين خـالفوهم في ميـدان العقائـد والمبـادئ نظـرة معاديـة اتسمت بالحقد والكراهية، على أنهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الـوهراني بعـد سـقوط دولـة المـرابطين بقولـه: (لما تعـذرت مـآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي ومن أخلاق الأدب رضاعتي) [3].

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤). (٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤).

(٣) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، د. عليّ أحمد (ص٨٦).

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم وأعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لسانًا والورقة إنسانًا لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح)[١].

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي، الذي يصف المقري أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعدما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفًا من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدّث بقوص بالموطأ ثم قال، ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١هـ وقيل باليمن)[٢].

ولله درّ الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكًا يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلّقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأيًا هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة[٣].

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٥، ٨٦). (٢) المصدر نفسه (ص ٨٧).

(٣) انظر: الإمام مالك بن أنس، عبد الغني الدقر (ص١٣٣).

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، فأفتى كلٌ في مصره بما رآه «فلم يزل يؤخذ عنهم كابرًا عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت تولِّهم عمَّا يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفرًا، فأقِرَّ كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك»[1].

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عن الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت[2]، وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هانئ الجياني ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت -، قال: فزوروني[3]، وقال: ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتابَ اللهِ، وقرأت من السُّنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت[4].

وكان مجلسه عامرًا بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حمّويه: دخلت مراكش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحًا، مهيبًا، حسن الصورة، تامَّ الخلافة، لايُرى منه اكفهرار، ولا عن مجالسه إعراض، كان بزي الزهاد والعلماء، وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله «فتاوى»، وبلغني أن السودان[5] قدّموا له فيلاً فوصلهم، وردّه، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتبًا للأيتام، فيه نحو ألف صبي، وعشرة معلمون.

---

(١) المصدر السابق (ص ١٣٤).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦).
(٣) أي نظر إليه نظرة المغضب.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦).
(٥) تطلق على بلاد غرب أفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقًا.

حكى لي بعض عُماله أنه فرق في عيد نيفًا وسبعين ألف شاة[١].

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين[٢].

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة، واهتم بالمرضى وبنى لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين دينارًا للأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة[٣]. ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة[٤]. وحارب الخمر في ملكه وتوعد عليها فعدمت[٥].

قال عنه ابن كثير- رحمه الله-:

«كان دينًا حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهريًا حزميا ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريبًا إلى المرأة والضعيف رحمه الله»[٦].

وقال عنه ابن العماد:

(ذكيًا شجاعًا مقدامًا محبًا للعلوم كثير الجهاد ميمون التقية ظاهري المذهب معاديًا لكتب الفقه أباد منها شيئًا كثيرًا بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر)[٧].

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق (٢١/ ٣١٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٧).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٧).
(٦) البداية والنهاية المجلد السابع الجزء (١٣/ ٢٢).
(٧) شذرات الذهب (٤/ ٣٢١).

أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطيع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس[١].

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن ابراهيم بن مطرف المري أحد المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عز وجل بأنه لا يقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت- ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه «لأنه لايرى شيئًا من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت...» [٢].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاءوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذي تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «.. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليَّ فزعهم وإليَّ ينتسبون»[٣].

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات، لأن ماتحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾** [يونس: ٨١] **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾** [الرعد: ١٧].

---

(١) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحًا.
(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص٥٧٥).
(٣) انظر: المصدر السابق (ص٥٧٦).

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لايستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئًا فشيئًا[1].

ثانيًا: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيرًا، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلادًا تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت أمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة[2].

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص٥٧٥).
(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٩٤).

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائمًا مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلا حازمًا موهوبًا في شئون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى(١).

أ- الصراع مع بني غانية المرابطين:

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور واستطاعوا أن يحتلوا مدينة بجاية بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، ثم تولى أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدين سلطانهم على الأندلس ظل بني غانية لا يخضعون لسيطرتهم، وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مردنيش عام (٥٦٧هـ / ١١٧١م) وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين لكن إخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الأجل.

ويرجع أصل بني غانية إلى مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية

(١) المصدر السابق (ص١٩٥).

واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعارًا لهم وهادنوا الموحدين بعض الوقت ولما مات الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوى وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفعوا شعارها وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابع وخاضع لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع في القضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقية وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع قراقوش، وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان، وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في إرسال الحملات وفقد الألوف من جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال، وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام (٥٨٢هـ/ ١١٦٨م) وجعل من مدينة تونس مقرا لقيادته واستطاع بفضل حزمه وشجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤ هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غربًا. ولقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه كثير من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد

ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي من الداخل، وأمـن خطـر القبائـل العربيـة ووظـف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقـد كـان هـذا العمـل الحاسـم القـوي في توحيـد الجبهـة الداخلية سببًا من أسباب انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأرك الكبيرة.

لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهـذا يـدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري[١].

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير بيت المقدس ما تم إلا بعـد توحيـد العـراق ومصـر والشـام وإزالـة البـدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

ب ـ جهاده في الأندلس:

بعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسـف بـن عبـد المـؤمن في الأنـدلس (٥٨٠ هـ) هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

١- انشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقيـة، ومـرض أبـي يوسـف المنصـور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

٢- الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفـترة، فحـرص الملـك ألفونسـو على عـدم إثـارة المسـلمين ضـده فيغـريهم بالسـير إلى غـزوه ولكـن بعـد وفـاة المطـران

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣١/ ٢٢٤ - ٢٢٧).

(جونزالو) وتعيين «مارتن دي بسيرجا» مطرانا لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العُزل رجالا ونساء، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب[(١)].

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطابا يشابه كتاب الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال.

وهذا نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

«باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاما بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من

(١) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (٢/ ٨١).

الرهان، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى»(١).

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه: **﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** [النمل: ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتُبَ إلا المشرفية عنده ... ولا رُسُل إلا الخميس العرمرم(٢)

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

ودوت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقًا على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله، بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطي والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانيا، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن

---

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٦).
(٢) وفيات الأعيان (٧/ ٧).

يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في (٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ)، ولم يسترح بها إلى قليلا، ثم أسرع بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب أسبانيا وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأرك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة[١].

ثالثًا: معركة الأرك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون ونبارة[٢]، واستفز كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (١٥٠ ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية[٣].

وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك[٤].

(١) انظر: الأرك، شوقي أبو خليل (ص٥٣، ٥٤).
(٢) المصدر السابق (ص٥٤).
(٣) انظر: موسوعة المغرب العربي (ص٢٣١). (٤) انظر: معركة الأرك (ص٥٥).

خطة الموحدين:

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبي يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ إنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى بن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم، وهو ما لم يتبع دائما، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها[١].

(١) انظر: معركة الأرك (ص٥٦).

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ، وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله بن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصا وقد كان يؤمل أنه يستطيع بقيادته أن يحرز نصرا باهرا على جيش الموحدين[١].

وفي (٩ شعبان ٥٩١هـ/ ٨ تموز (يولية) ١١٩٥م) كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارسا بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقوله له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى[٢]، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوة الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ووضعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعا يضطرمون شوقا إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى[٣]. وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند

---

(١) انظر: معركة الأرك (ص٥٧).

(٢) المصدر نفسه (ص٥٨).

(٣) انظر: معركة الأرك (ص ٥٨).

أن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: «اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم»(١).

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم(٢).

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم(٣).

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرَك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيّقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال(٤).

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية الآف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ(٥).

وفي «البيان المغرب» في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: «فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسرابٌ، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العفاني (٦/ ٢٤٠).
(٢) المصدر السابق(٦/ ٢٤٠).
(٣) انظر: تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي (ص٤٨٦).
(٤) انظر: معركة الأرك (ص٥٩).
(٥) انظر: معركة الأرك (ص ٥٩).

وأحضروا قلوبكم. ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفردًا من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلامًا وجيزًا في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته»(١) لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسما منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيد وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعًا بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى(٢).

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشًا عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله». ولم يشأ الفونسو بالرغم من اشتداد

---

(١) انظر: البيان المغرب (ص١٩٤/ ١٩٥).
(٢) انظر: تاريخ الأندلس لأشباخ (٢/ ٨٦).

ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيدًا عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته(١).

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين(٢).

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور باذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر(٣)، كما بنى حصنا كبيرًا في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفا وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين(٤).

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦ بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية «أستراما دورة» وعبر النهر الكبير «الوادي الكبير» في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع الفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظرا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة

---

(١) انظر: معركة الأرك (ص٦١).
(٢) انظر: روض القرطاس (ص١٤٥).
(٣) انظر: معركة الأرك (ص٦٣).
(٤) انظر: معركة الأرك (ص ٦٣).

أيام محاولا اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحبًا جنوبًا بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة[١].

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معهم حلفًا واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٦م) الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش[٢].

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يُسعى إليه ويُرتجى ... ويُزار من أقصى البلاد على الرجا
مَنْ غدا بالمكُرمات مُقلدًا ... وموشحًا ومختمًا ومتُوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره ... وتعطرت منه الرياح تأرُّجا[٣]

رابعًا: نتائج معركة الأرك:

١- ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.

٢- سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

٣- حقق الموحدون نصرًا عظيمًا جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

---

(١) انظر: تاريخ الاسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥).
(٢) انظر: معركة الأرك (ص٦٥).
(٣) انظر: نفح الطيب (١/ ٤١٩).

٤- ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

٥- انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

٦- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

٧- أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

٨- جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

٩- تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورصّ الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

١٠- دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي. وغير ذلك من النتائج.

خامسًا: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك:

لا شك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها:

١- الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

٢- اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين

من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

٣- محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

٤- فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بألا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدًا من الأئمة المجتهدين المتقدمين[١]، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه، وأبطل التقليد[٢]. ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم[٣].

٥- احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف، وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيَّر الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضت بعد ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبد

(١) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

(٢) انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٢٠٣).

(٣) انظر: معركة الأرك (ص٧١).

الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسيِّر إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبد الله ما هذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه. فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئًا يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهّر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل[1].

٦- الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

٧- الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

٨- الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد، فمثلاً الأندلسيون يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معناويتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

٩- جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

---

(١) انظر وفيات الأعيان (٧/ ١٠، ١١).

١٠- الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائدًا أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

١١- إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

١٢- تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

١٣- سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادسًا: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوسًا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة(١).

(١) انظر: تاريخ الاسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٦).

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتابًا رقيقًا [١] جاء فيه:

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضًا. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[٢] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[٣].

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعًا إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحرًا، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعًا إلى أن يعقوب المنصور كان دائمًا على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس[٤] وذكر بعض المؤرخين سببًا آخر منع أبا يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصًا قراقوش التقوى الذي حالف بعض أعداء الموحدين

(١) الاستقصا للسلاوي(٢/ ١٦٣).
(٢) انظر: العبر (٦/ ٤٩٠).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٦).
(٤) انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٦).

كعرب بني هلال، وابن غانية الذي كان يدعوا إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه(١).

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم، لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم، ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه(٢).

وقد أشار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر(٣).

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفى الحظوظ فأبدت منظرًا عجبًا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد ... حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصرًا في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا (٤)

لا شك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح سلطان الموحدي المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال: نحن إن شاء الله مطهروها. ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله(٥).

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولا شك أن أمراء الدولة النورية

---

(١) انظر: معركة الأرك (ص ٧٠).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب للعبادي (ص١١٤).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٥).
(٤) انظر: دراسات في تاريخ المغرب، للعبادي (ص١١٥).
(٥) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص١٩٨).

والأيوبية يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الاطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها(١).

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئًا بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم(٢).

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتًا أعطاه بكل بيت ألفًا.

ومن القصيدة:

سأشكر بحرًا ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى ... إلى سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول ترجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنًا ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها ... وأدنى عطياك العدد والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيًا ... تبلغك الآمال ما أنت آمل(٣)

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ١٩٨).
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ١٩٨).
(٣) انظر: معركة الأرك (ص ٧٤).

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحلّ طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته)[١].

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظرًا لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهلي المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عددًا كبيرًا من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين[٢].

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصرًا لزمن صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دونا عن سائر تجار المسلمين «لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رءوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم...» ثم يشير ابن جبير في

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى ص٣٩. وانظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١١٧ للعبادي.

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٨).

مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم»[(١)].

سابعًا: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجدًا عظيمًا متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته[(٢)].

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض: إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر: إنه ذهب للحج وعاد منه زاهدًا فمات في الطريق ودفن في الشام[(٣)].

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥هـ ودفن بتينمل مع آبائه ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب[(٤)].

يروى ابن أبي زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها:

---

(١) راجع رحلة ابن جبير (ص٢٨٠،٢٧٤) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١١٩).

(٢) المصدر السابق نفسه. (٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: معركة الأرك (ص ٧٦).

الأولى: إدخال البدو - العربان- من إفريقية إلى المغرب، مع أني أعلم أنهم أهل فساد.

والثانية: بناء (رباط الفتح)، أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمّر.

والثالثة: إطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثالثة، فقد كتب لرباط الفتح أن يعمّر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصّت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس[١].

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام ٥٩٥هـ[٢] فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

* * *

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٩).

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦).

المبحث الرابع

الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر

توفى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) وقد أثارت وفاته حزنًا عميقًا في الأوساط الإسلامية المغربية وذلك لأن كثير من الناس كذبوا وفاته وقال البعض إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورها لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك.

وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينمل[١]، إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر، وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشرة عامًا حيث إنه ولد في عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م).

وتولى الحكم عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) وقد كان شابًا طموحًا معتزًا بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين، واستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد عبد الله الناصر استبد بالأمر[٢].

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جريًا على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦).

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦).

المرابطين واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحًا شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعًا فارسًا إذا ركب عُدّ وحده بخمسمائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيرًا من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وطليطلة وقلعة أيوب.

وليّ علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها واليًا إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتن على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعيًا للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأمّه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا وجنوب فرنسا- فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، وأشتد بذلك عوده وقوى أمره، وتشبّه بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفى عام (٥٧٩هـ).

وكان إسحاق هذا له سياسه مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة (٥٧٨هـ) كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلب مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الأنفس والأغراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة،

فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والـذي دخـل في حـرب مـع الموحـدين طويلة المدى واستطاع الخليفة الموحدي المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربـه وقادهـا بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغـرب الأوسـط وإفريقيـة وطـرابلس بجـد السـنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبين(١).

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عـاد بنـو غانيـة الميورقيـون إلى شـن غـاراتهم علـى إفريقية وتمكنوا مـن الاسـتيلاء علـى تـونس والمهديـة وبـلاد الجريـد والـدعاء فيهـا للخليفـة العباسي جريًا علـى عـادة أسـلافهم المرابطين وكـان عبـد الله بـن غانيـة قـد حـاول في عـام (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبد الله محمد الناصـر لـدين الله ابـن المنصـور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعـدة بـني غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقية لهذا صـمم الناصـر علـى بسـط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهـذا الغـرض في ثغـر دانيـة وأسـند قيـادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسـة عشـر ألفًـا من الرجال وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سـفينة) (أو أنـواع السفن) وأقلعـوا يـوم السـبت ٢٤ ذي الحجـة (٥٩٩هــ/ ١٢٠٣م) مـن جزيـرة يابسـة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتـل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العـلاء إدريـس قائـد الأسـطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فـدخل البلـد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجـزر الشـرقية أو جزر البليار وتم لهـم ذلـك (٦٠٠هــ/ ١٢٠٣م) وأقـيم عليهـا عبـد الله بـن طـاع الله الكومي واليًا عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجـزر الشـرقية

(١) انظر: العقاب، شوقي أبو خليل (ص ١٥، ١٦).

(جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين واليًا على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية ونستطيع أن نقول أن عام ٦٠٤هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها وفي عام (٦٣١هـ/ ٦٣٣هـ/ ١٣٣٤م أو ١٢٣٦م) توفى يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان[1].

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم، لأنهم رأو في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحِّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

ثانيًا: جهاد الناصر لدين الله في الأندلس:

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثارًا عميقة

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦ ، ٢٤٠).

في نفوس النصارى وخصوصًا ألفونسو الثامن ملك فشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصينًا قويًا عام (١٢٠٩م)، ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين[1].

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وان يدعوا نصارى أوربا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوربا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس[2].

وشرع النصارى الحاقدين في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعًا كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

١- الجيش الأول من قبائل البربر.

٢- والثاني من الجنود المغاربة.

٣- والثالث من الجنود الموحِّدية النظامية.

٤- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

٥- والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل

(١) انظر: معركة العقاب، شوقي أبوخليل (ص٢٣). (٢) انظر :موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٤٠).

في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح[١].

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نياته، ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يومًا فيومًا.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيرًا بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوربا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس[٢].

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسا (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا- يمنح كل من لبى الدعوة الغفران التام) [٣].

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوربا للوقوف مع نصارى الإسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم[٤]:

---

(١) انظر: معركة العقاب، شوقي أبو الجليل (ص ٢٣).
(٢) انظر:معركة العقاب (ص٢٦).
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٧).
(٤) المصدر السابق (ص٢٩).

ووفدت على أسبانيا جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعًا عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عددًا، وقاد أرنولد مطران أربونة جيشًا من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقًا للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار - بعد أن كان غاضبًا من ملك قشتالة- أولاً على أن يؤيد قضية أسبانيا بالمال والجند، ثم - وهو الأهم- على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فأضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبة فعليًا بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بأرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن، كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء[١].

وفي روما، أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماسًا لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماسًا لنصر الإسبان.

وفي (٢٠ حزيران «يونية» ١٢١٢م)، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في

(١) انظر: العقاب (٣٠، ٣١).

المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوربا وكان تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بردْال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغونيين والقطلونين فقط مع فرسان الدواية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أُخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفًا، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير(١).

أ- حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعابًا فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصارًا طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في افتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر.

يقول يوسف أشباخ(٢): (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة

(١) انظر: العقاب (ص ٣٢).
(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (١١٣/٢).

افتتاحها، وأن يُبْدأ بالسير توًا لمهاجمة المسلمين)[1].

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن[2].

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عامًا هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم سانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى إثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، وبيدرو الثاني ملك أراغون نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشا لم تخرج أسبانيا النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر «ورادال» في جبال سيارا مورنيا «جبل الشارات» لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى[3].

ب- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجّاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدَسٍّ من وزيره أبي سعيد ابن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارًا، فكان لهذا الفعل أثر سيئ في الجيش الإسلامي كله، لا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر[4].

(١) انظر: معركة العقاب (ص٣١).
(٢) انظر: العقاب (٢٣).
(٣) المصدر نفسه (ص٣٥).
(٤) المصدر نفسه (ص ٣٦).

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغرّاء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

جـ- المعركة:

قام ملوك الإسبان في صباح ١٦ تموز «يولية» بترتيب جندهم لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعَّم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

١- تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها «ديجولويز».

٢- وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاسبتارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت «جونزالو نونيز دي لارا».

٣- والفرق الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت «ردريك دياز كاميروس».

٤- وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلاً عن المطران «ردريك الطليطلي»[(١)]، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضًا إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدرو، ومن حوله الأحبار والأراغونيون.

أما جيش الموحدين، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر تجاه جيش النصارى إلى

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، لأشباخ (٢/ ١١٧).

خمس فرق، كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين.

وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته[١]، إيذانًا باقتراب المعركة، ومن حوله حرسة من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبته، وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوّي بشدة في ساحة المعركة[٢]، وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفًا قويًا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاسبتارية والداوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها.

واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الرُّبى تطور المعركة على هذا النحو السيئ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلّف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد»[٣] تدل على أنه لم يكن

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، لأشباخ (٢/ ١١٨).
(٢) انظر: العقاب (ص٤٢).
(٣) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢/ ١١٨) نقلاً عن العقاب (ص٤٥).

يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة، وهم يرفعون أعلامًا عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندودهم. وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلمُّوا شعثهم، وينظِّموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطِّمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألواف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطِّما، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتَّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى إشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوربا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم(١).

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

١- أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضْري (٥٤٢-٦٠٩هـ)، من أهل شاطبة، صاحب

---

(١) انظر: العقاب (ص ٤٦، ٤٧).

التآليف الذي «كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهرًا، لا يخل بحفظ شيء منها. موصوفا بالدراية والرواية، غالبًا عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على بسعة حفظه، مع النظم والنثر.. ثم توجه إثر ذلك غازيًا. وشهد وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تَحَيّف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة.. »[1].

٢- القاضي الفقيه أبو ابراهيم إسحاق بن يعمر الجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وستمائة».

٣- أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفِهْري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفا بالزهد، واستشهد في كائنة العِقاب»[2].

٤- أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهدًا، عابدًا، معلما بالقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازيًا وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستمائة، فأقام هنالك أيامًا يَلْقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره..» [3].

٥- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليسَّانة عمل في قرطبة «ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافا ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ...، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩»[4].

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: أسباب الهزيمة في العقاب:

١- الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكر بعد حوالي ستة قرون في هضاب

(١) التكملة (١/ ١٠١، ١٠٢) رقم (٢٦٢) نقلاً عن التاريخ الأندلسى (ص٤٩٤) .
(٢) التكملة (١/ ٢٠٢) رقم (٥٣٦) نقلاً عن التاريخ الأندلسى (ص٤٩٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٣٥) رقم (٦٢٣) نقلاً عن التاريخ الأندلسى (ص ٤٩٥).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٨٥، ٥٨٦) رقم (١٥٥٩) نقلاً عن التاريخ الأندلسى (ص ٤٩٥).

الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: «صدق الرحمن وكذب الشيطان»[١].

٢- لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

٣- ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتما في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

٤- سبَّب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله لا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

٥- إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

٦- الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم[٢].

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها، بنيما

(١) انظر: العقاب (ص ٥٠).
(٢) المصدر نفسه، (ص٥١).

كان الرهبان والقساوسة يرتّلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة[1].

لقد كانت المجزرة اللاإنسانية في مدينة بياسة. يقول أشياخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين[2]: «ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزّل، وكان المسلمون يأملون نظرًا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرًا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأراغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطُرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأراغونيين قد خشوا العاقبة، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب «مليون دينار»، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قُبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتحها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدُّوا الضريبة

(١) انظر: العقاب (ص ٥٢).
(٢) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشياخ (٢/ ١٢٣).

المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقُتل من في أبدة زهاء ستين ألفًا، وسبي مثل هذا العدد، وهُدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم، ورتّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته »[1].

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان.

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح[2]

لم تكن موقعة العقاب سببًا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط، ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضًا. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفح الطيب: «كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاءِ كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها..)[3].

وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعًا إلى إشبيلية، وهنالك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كئيبا ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات ولم يقم بشيء من شئون الحكم سوى أن عيّن لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شئون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموما بأمر من

---

(١) انظر: العقاب (ص٥٣).

(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبد الله علوان (ص٨٤).

(٣) نفح الطيب (١/ ٤٢٠).

وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في (١١ شعبان ٦١٠ هـ / ٢٥) كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٢١٤م) ، بعد أن حكم خمسة عشر عامًا وبضعة أشهر(١).

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدًا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة، وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدون دماء وأموالاً، وتفككًا داخليًا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام (١٢١٢م) وليس عام (١٢٦٩م) إذ إن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عامًا بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان وبني حفص في تونس(٢).

رابعًا: أسباب سقوط دولة الموحدين:

١- ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتداؤهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق:

لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع

---

(١) انظر: العقاب (ص ٥٧).

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٤٨ إلى ٢٥٣).

خصومهم ولذلك كفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فأفنوا أعدادًا كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحيانا واهية، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث إن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه الله إلى اليمن.. «... **واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**».

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وأن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود[1].

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالهما خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لهما بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثره وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]. قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال الألوسي- رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**﴾، أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[3].

ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئًا مؤكدًا ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقينا أن الأمة الظالمة تهلك حتما بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[4].

(١) انظر: المُغرِب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عُبادة كُحيلة (ص١١٩).
(٢) انظر: السنن الإلهية، د.عبد الكريم زيدان (ص١٢١).
(٣) انظر: تفسير الألوسي (٨/ ١١٢).
(٤) انظر: السنن الإلهية في الأمم (ص١٢١).

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٠ – ١٠٢].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾.

فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. فالآية تحذر من وخامة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧].

قال الإمام الرازي – رحمه الله – في تفسيره: (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضا على الصلاح، وعدم الفساد)[(٢)].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي فيم بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[(٣)].

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع

(١) انظر: السنن الإلهية في الأمم (ص ١٢٢).
(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٧٦).
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ١١٤).

الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق - أي في الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة)[1].

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

٢- من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين:
حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

٣- ثورات الأعراب المتتالية:

حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحيانًا تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين وأحيانا تخضع لدولة الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين، لقد قدموا الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدين عام ٥٨٤ هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ أصبحوا يتدخلون في شئون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك

---

(١) انظر: من رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح المنجد (ص٤٠).

الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم»[(١)].

٤- ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين:

ومن أشهر هذه الثورات، ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون .

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب[(٢)].

٥- النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاما ثابتا لتولي الخلافة عندهم:

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل بأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها.

ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف[(٣)].

أ- ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن اخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع

(١) انظر: العقاب (ص٦٨).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى (ص٨٣).
(٣) المصدر نفسه (ص ٦٣).

على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في (٦٢٣/ ١٢٢٦م) السيد أبو محمد عبد الله العباسي وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظل كل منهما مدعيا للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤- ٦٣٣/ ١٢٢٧-١٢٢٦م)، في عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلّت الجبابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن[1].

ب- دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

ج- إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخة أو باحثين عن ملذاتهم[2].

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية[3].

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص٨٤).

(٢) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص٨٥). (٣) المصدر نفسه (ص٨٦).

من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[١].

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائما يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا. ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٢].

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائيا عن مراكش. لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلافاء وإشرافهم بأنفسهم وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة[٣].

٦- الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لا شك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثرا بالغا في التنظيم العسكري للدولة ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعًا صحيحًا وتنفيذًا أكيدًا.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشًا قادرًا على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص٨٥). (٨٧).
(٢) المصدر نفسه (ص٨٩).
(٣) المصدر نفسه، (ص٩١،٩٢).

أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلا من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

لقد كان لإدخال العربان في الجيش الموحدي أثره الخطير على أهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ولا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأوامر. وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقا رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة[1].

٧- الترف والانغماس في الشهوات:

الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشئون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أم صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعا بانتجاع البقر والخيل في رياضة وتوفى من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالا للدعة والمسالمة، ومولعًا بالسماع ليلاً ونهارًا وكذلك المقربون منهم[2].

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٩٥، ٩٦).
(٢) المصدر نفسه (ص٨٦).

أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ [هود: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[١].

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدو عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ۞ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ۞ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ [الأنبياء: ١١- ١٣].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبّاريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[٢]. وهذا أحد وجود تفسير الآية.

٨- تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية، أراغون من

---

(١) انظر: السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد (ص١٨٦).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١٥/ ٤٢).

الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس، وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم وأستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)[١].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) زيان بن مردنيش، وفي سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م) إلا وقد سيطر على غرب الأندلس[٢].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م)، وبلنسية في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م)، ومرسية (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) وإشبيلية (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جدًا.

وانفصلت إفريقية سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعة[٣].

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس، وإفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل[٤]، فسيطرت قبائل بني مرين على وادي المغرب، وانفصل بني عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

---

(١) انظر: البيان المغرب (٣/ ٢٦٩) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص١٠٨).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص١٠٨).
(٣) المصدر نفسه (ص١٠٩). (٤) المصدر نفسه (ص١١١).

٩- فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: «ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»[١]. ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي عليها ويلتزمها وتُبعد منَ يحيد عنها.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقويًا بهم وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيرًا ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحوا آثارها ويزيل رسومها ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد ذلك عمليا في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب إن الفكر أن لم يداوم أصحابه

---

(١) المعجب (ص١٩١).

عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم(١).

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين.

خامسًا: خلفاء الموحدين:

عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٢٠-١١٦٣م).

أبو يعقوب يوسف (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٣٦-١١٨٤م) .

أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م).

أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ / ١١٩٩- ١٢١٣م).

أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ / ١٣١٣-١٢٢٤م).

عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ / - ١٢٢٤م).

أبو عبد الله بن يعقوب المنصور(العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ / ١٢٢٤-١٢٢٧م).

يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ / ١٢٢٧-١٢٣٠م).

المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ / ١٢٣١-١٢٣٢م).

الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ / ١٢٣٢-١٢٤٢م).

السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ / ١٢٤٢-١٢٤٨م)

أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ / ١٢٤٨-١٢٦٦م).

أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ / ١٢٦٦-١٢٧٠م).

* * *

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص١١٧).

الفصل الثالث
الأندلس والشمال الإفريقي
بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام (٨٩٧هـ) ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب.أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين، فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل، دول من أهمها: دولة بني حفص في إفريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف ابن هود قواعد شرقي الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع مما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في (٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ ٢٩ حزيران (يونية) ١٢٣٦م)، صيحة النذير المدوية،-لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثم والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) ثم شاطبة ودانية، وفي عام (٦٤٦هـ) سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهرًا، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيرًا جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يُخير المسلمون بين البقاء في إشبيلية، أو يهاجروا، وفي الحال حُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط إشبيلية إيذانًا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعًا على: شريش، شذونة، قادس، شلوقة، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها.... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة(١).

---

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص٣٠).

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوّح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحًا لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية ومرسية بيد النصارى.

لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألمًا وحزنًا، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغتر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شَان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكليل وتيجان
أتى على الكل أمرٌ لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوانٌ يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أحُدُ وانهد ثهلان
أصابها العين في الإسلام ... حتى خلت منه أقطار وبلدانُ
فاسأل بَلنسية ما شأن مُرسية ... وأين شاطبة أم أين جَيانُ
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شأنُ
وأين حِمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذبُ فياض وملآنُ
قواعد كُنَّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفِراق الإلفِ هَيمانُ

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصُلبانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيًا مرحًا يُلهيه مَوْطِنه ... أبعد حمص تغرُّ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنستْ ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاء رايتُه ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجالِ السّبق عُقبانُ
وحاملينَ سيوف الهندِ مرْهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبياتٌ لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لِذّلةِ قومٍ بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهم ... كما تفرقت ارواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقوُدُها العِلْج للمكروه مُكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان[1]

---
(١) نفح الطيب (٤/ ٤٨٦، ٤٨٨).

«وكان لابن الاحمر من هذه الحوادث موقفًا شاذًا مؤلمًا، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية - وقد أيقنوا بانهيار سطان الإسلام في الأندلس- يهرعون إلى احتذاء مثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة»[١].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكًا له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يقطر حزنًا وأسى[٢].

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس، وحاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، فردّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام ٦٦٢هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شددّ النصارى هجماتهم بدءًا من عام (٦٦٣هـ) وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد ابن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعونًا، ولكنها لم تجد نفعًا، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر آن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأربًا[٣].

---

(١) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين (ص٣٣).
(٢) المصدر السابق (ص٣٤).
(٣) انظر: مصرع غرناطة (ص٣٣).

وفي عام (٦٦٨هـ) ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خرابا، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في (٢٩ جمادي الثانية ٦٧١هـ كانون الأول «ديسمبر» ١٢٧٢م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطَّد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عامًا أخرى[١].

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي. يرجعُ في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيبًا شهد العقبة وبدرًا[٢].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة (٥٩١هـ، ١١٩٥م) وهو عام الأرك. كان جنديًا وافر العزم والجرأة دعا لِلَمّ الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ[٣].

شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شئون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظَّم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريبًا من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل و الملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[٤].

يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضًا للدعة والراحة، مؤثرًا التقشف بعيدًا من التصنع، شديد الحزم، فظا في طلب حقه، مباشرًا للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي»[٥].

---

(١) ابن خلدون (٧/ ١٩٠) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص٣٣).
(٢)، (٣) انظر: التاريخ الأندلسى (ص ٥١٧).
(٤) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحان (ص٣١).
(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص٤٣).

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر، إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان ودار للعجزة، وبنى مستشفى كبيرًا ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متسترًا بعيدًا عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك[(١)] .

«وكان يعقد للناس مجلسًا عامًا يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة»[(٢)]. كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الأهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوبًا مختلفة»[(٣)]. ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومدّ إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائمًا حتى اليوم[(٤)].

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

١- موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكانًا بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

٢- ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في

(١) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات (ص٣٢).
(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص٤٤). (٣) المصدر السابق (ص٤٣).
(٤) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د..يوسف شكري (ص٣٢).

الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

٣- هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذًا يحتمون به ويلجئون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها[١].

٤- حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثرًا مباشرًا في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

٥- براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر[٢].

وغير ذلك من الأسباب.

ثانيًا: جهاد المرينيين في الأندلس:

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمّة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعرًا فقيهًا، حتى أنه دعي باسم «محمد الفقيه»، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرة المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٥٢١، ٥٢٢).

(٢) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة (ص٢٦٩).

مليًا دعوتهم، وقاصدًا نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة (٦٧٣هـ) فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان[1] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنودًا وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في ١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألّف بين المسلمين.

وسُرَّ أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سرورًا عظيمًا، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وزناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز (٦٧٤هـ) وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل

(١) أي ببناء السفن.

يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المتطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجًا بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباحَ مَسا
كأنما البحر أضحى للجياد مَدىً ... وكل غشبْة ماء حُوّلت فَرَسا
كأنما اقترب البرّان واتصلا ... فصار ذاك طريقًا للورى يَبسا(١)

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضراء، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس (٢١ صفر ٦٧٤هـ) وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحًا وسرورًا واستبشارًا بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصدًا جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلّف، ولم تستطب جفونه منامًا، ولم يلتذ شرابًا ولا طعامًا، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدِّمته وقدَّمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والدُهُ بمرحلة، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجة:

---

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص٤٣).

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة «دونونة» في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم[(١)].

أ- مجلس الشورى الحربي:

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل ودونونة في وسط الجيش وكان ملك قشتالة حزمه بيده، وزوجه ابنته، وفوضه على جيوشه وحروبه، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه كان لم ينهزم قط، وكان وبالاً ودمارًا ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبريائه وغروره تحت ضلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا[(٢)] الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب- ترتيب أبي يوسف لجيشه:

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيدًا عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجَّل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمِّنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة «اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها» فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته،

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص٤٥).
(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ٤٦).

ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذابون على حماه والمقاتلون عِداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدوا في طِلابها، وأبذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، و﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة: ١١١] فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيدًا ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا، ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠] «فلما سمعوا منه هذه المقالة، تاقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضًا للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم»[(١)].

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسّم «دونونة» جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعًا متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان «دونونة» كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه[(٢)].

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصرًا حاسمًا في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزّلاّقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرَكْ في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصورًا مظفرًا إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ، بعد أن قضى

(١) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٥٣٨) نقلاً عن الذخيرة السنية (ص١٤٩، ١٥٠).
(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص٤٨).

حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم[(١)].

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستجة وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

١- الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواءً لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على إثره.

٢- إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدون وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم وبذلك تحاشى الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

٣- صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرت في الحروب وخططها.

٤- باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عددًا من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

٥- أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار «القرويين» ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم[(٢)].

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحًا وسرورًا بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن أشقيلولة كتابًا للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٥٣٨).

(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص٥٠).

هبت بنصركم الرياح الأربع ... وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سبقًا ... حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنًا ... أن الأمور إلى مرادك ترجع[1]
وأمدّك الرحمن بالفتح الذي ... ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لِمَ لا؟ وأنت بذلت في مرضاته ... نفسًا تفديها الخلائق أجمع
وأتيت تنصر دينه متوكلاً ... بعزيمة كالسَّيف بل هي أقطع
أين المفر ولا فرار لهارب ... والأرض تنشر في يديك وتجمع
فلقد كسوتَ الدين عزًا شامخًا ... ولبست منه أنت ما لا يخلع
إن قيل من خير الملوك بأسرها ... فإليك يا يعقوب تومي الأصبع

ج- الغزوة الثانية:

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف ضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة وعقد تحالفًا مع ملك قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال «طريف» مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودهم من جديد[2]، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن

(١) إن الأمور مردها ومرجعها إلى الله تعالى.
(٢) انظر: مصرع غرناطة (ص٥١).

طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي محمد الفقيه في شعبان سنة (٧٠١هـ/ أيار مايو ١٣٠٢م) بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[١].

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عَبَرَ أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة (٦٨٤هـ) إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفدًا من الأحبار يفوض السلطان المريني على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس[٢].

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م)، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس.

هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته:

كان رحمه الله صوامًا قوامًا، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرا، وفي أكثر ليله قائمًا يصلي، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته، مكرمًا للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، وتواضعًا في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفًا في سفك الدماء، كريمًا جوادًا، وكان مظفرًا منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدوا إلا قهره، ولا لقي جيشا إلا هزمه ودمَّره، ولا قصد بلدًا إلا فتحه[٣].

ولا ننسى أنه كان خطيبًا يؤثر في نفوس جنده، شجاعًا مقدامًا يبدأ الحرب بنفسه

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص ٥٣).
(٢) المصدر نفسه (ص٥٤).
(٣) انظر: مصرع غرناطة (ص٥٥).

عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[1].

قال عنه ابن كثير- رحمه الله- في وفيات عام (٦٨٥ هـ): (أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها)[2].

د - مشيخة الغزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء[3].

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه «لم يزل ملوك بن مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة»[4].

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة (٧٠١ هـ / ١٣٠١م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد

---

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص٥٥). (٢) البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٧).
(٣) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٥٤٠).
(٤) نفح الطيب (٤/ ٣٨٥) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص٥٤٠).

الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام (٧٠٨ هـ).

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محبا للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المرية، فهزم النصارى في المرية، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصار طويل مضن دام حتى آخر سنة (٧٠٩ هـ).

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاء وعداء بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة (٧١٣هـ) ورشح الخارجون عليه للملك بدلاً عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف رأس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها[١] ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩].

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم[٢].

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة (٧١٦هـ)، واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون[٣].

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألّب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرة، وكان وصيًا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكًا أو أميرًا بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي «البابا» في طليطلة[٤]، وكان من

---

(١) انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨). (٢) انظر: نهاية الأندلس (ص١١٧).
(٣) انظر: ابن جزي ومنهاجه في التفسير لعلي الزبيري (١/ ٥٦).
(٤) المصدر نفسه، (١/ ٥٦).

ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي[١].

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمسمائة فارس والباقي رجَّالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء[٢]، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجأوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم، فقضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصرا عزيزا، ويوما مشهودًا. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفًا، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه[٣].

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به: (كان حسن الخلق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، وثابتًا في المواقف، عفيف الإزار، ناشئًا في حجرة الطهارة بعيدًا عن الصبوة، بريًا من المعاقرة)[٤].

وفي سنة (٧٢٤ هـ) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه[٥].

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة وكانت من أعظم غزواته وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر[٦].

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتِلَ بباب قصره غيلة من قِبل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحا وتُوفي على إثر ذلك في اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته[٧].

---

(١) التاريخ الأندلسي (ص٥٤١،٥٤٢). (٢) المصدر السابق (ص٤٥٢).

(٣) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٧).

(٤) الإحاطة (١/ ٣٧٧) بريًا من المعاقرة: أي بعيدًا عن شرب الخمر.

(٥) انظر: نهاية الأندلس (ص١٢٠). (٦) المصدر نفسه (ص١٢٠).

(٧) المصدر السابق (ص١٢١).

وفي عام (٧٣٣ هـ) استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام (٧٠٩ هـ) وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية[١].

هـ- موقعة طريف:

وقد تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة (٧٤١هـ) من قبل النصارى.

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة (٧٣٣هـ) بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عامًا - إذ سقط في أيدي النصارى سنة (٧٠٩هـ)- توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس «وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣-٧٥٥هـ) ».

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا أسطولا بحريا متحدا ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن

---

(١) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٩).

المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبرًا بالسيوف، وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة[١]. ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفًا، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة (٧٤١هـ) وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم[٢]. وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي: (ولما قرب معسكرهم سرب الطاغية إلى طريف جيشًا من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عددًا ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذرًا من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفًا وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولّما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم

(١) انظر: ابن خلدون (٧/ ٢٦١) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٢).
(٢) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٣).

النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارًا وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولى السلطان متحيزًا إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم)[١].

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب[٢].

يقول المقري في وصف هذه الفاجعة: «فقضى الله الذي لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولّة وافرة من الأعلام.. واشرأبّ العدو والكفار لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريف، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء»[٣].

ويرى الأستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيرًا ماحث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة..)[٤].

---

(١) انظر: العبر لابن خلدون (٧/ ٢٦١،٢٦٢) نقلاً عن ابن جزي (١/ ٧٤).
(٢) انظر: نهاية الأندلس (ص١٢٨).
(٣) انظر: ابن الجزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٤) نقلاً عن نفح الطيب (٦/ ٣١٧).
(٤) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، الأستاذ/ نجيب زبيب (٣/ ٨١).

ولا شك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تُدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء؛ بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بنائها.

و- العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

١- أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

٢- القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التَّمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، «كان حسن التخلق عطوفًا على الطلبة، محبًا للعلم والعلماء، مجلاً لأهله مطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صوالة معروفًا بنصرة من آوى إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظرًا في أمور العقد والحل ومصالح الكافة، ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الهوادة ملازمًا للقراءة والإقراء محافظًا للأوقات حريصًا على الإفادة. ثم ولي القضاء والخطابة بغرناطة»[1].

«وتصدر لبث العلم بالحضارة يقري فنونًا منه جمة فنفع وخرج، ودرس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعًا على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمُّل وخفض الجناح»[2].

«واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد - رحمه الله - في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف، شهيدًا محرضًا يشحذ البصائر و (يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول:«حسبنا الله ونعم الوكيل».

٣- أبو القاسم محمد بن جزي وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان «فقيهًا حافظًا قائمًا على التدريس، مشاركًا في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظًا للتفسير، مستوعبًا للأقوال، جمّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيبًا بالمسجد الأعظم من

---

(١) الإحاطة (٢/ ١٧٦، ١٧٧).

(٢) نفس المصدر السابق (٢/ ١٧٧).

بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته»[١].

«فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف..»[٢].

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مد وجز، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنبًا مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حينًا آخر ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عونًا في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين (٨٦٩هـ)[٣].

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيرًا لحب امرأة رومية نصرانية تدعى «ثريا» وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتيه الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليًا للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعًا، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدد الحجر عليهم، وعُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين:

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ. وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سرًا بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنت من الهرب من قصر الأحمر في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة (٨٨٧هـ / ١٤٨٢م) بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين، وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٥١٤).

(٢) نفح الطيب (٥/ ٥١٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص٥٤٧).

(٣) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٤).

وقرر فرديناند وإيزابيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحامة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معًا، وتم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال الحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معًا الإسبان في جمادى الأولى (٨٨٧هـ/ تموز «يوليه» ١٤٨٢م).

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة) واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشًا جرارًا سيره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة (٨٨٧هـ)، وعمره ٢٥ سنة، وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصونًا وقلاعًا سنة (٨٨٨هـ نيسان «ابريل» سنة ١٤٨٣م) إلا أنه وقع أسيرًا في يد النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدم أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقع على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءًا سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى (٨٩١هـ / أيار مايو ١٤٨٦م)، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريبًا.

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقى يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له.

وغدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها برًا وبحرًا في جماد الثانية (٨٩٢هـ/ حزيران يونيه ١٤٨٧م)، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر (شعبان ٨٩٢هـ/ آب اغسطس ١٤٧٨م) ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعًا، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوسان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبيِن لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تُسفك دماؤهم، وتُستحل حرمتهم، وتُغزى أراضيهم في الأندلس، وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيِّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل.

استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغير خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: «أنهما - فرديناند وزوجه إيزابيلا - لايفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لايستطيعان صبرًا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية»[1].

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين (ص٣٦٩).

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتُركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحدًا، لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعًا بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م).

واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

١- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

٢- تخفف عنهم أعباء الضرائب.

٣- ألا يولى عليهم يهودي.

٤- ألا يدخل نصراني في «الجماعة الإسلامية».

٥- وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا أن النصارى لايلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائيًا بعدوة المغرب والشمال الإفريقي[١].

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد الله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبيه هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجرًا إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزينًا على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى[٢].

في سنة (٨٩٥هـ/ ١٨٩٠م)، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه إيزابيلا - وفدًا يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر،

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص ٧٢، ٧٧).

(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص ٧٧).

ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠-٨٠ ألفًا، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جماد الثانية سنة (٨٩٦هـ/ سنة ١٤٩١م)، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسّان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولُد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعًا عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين)(١).

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضوان، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون.

وحلّ الشتاء، وقلت المؤن، والذخائر ودخل الوزير المسئول عن غرناطة «أبو القاسم عبد الملك» مجلس أبي عبد الله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لاتكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة، والدفاع عبث لا يجدي، ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان: «لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن»(٢).

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد.. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها..»(٣).

---

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص ٨١).
(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص ٨٢).
(٣) المصدر نفسه (ص ٨٢، ٨٣).

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناس انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك[1]، جاء في نفح الطيب: «وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنًا خوفًا من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدًا، وألا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم، وأن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأنَّ من تنصر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن[2]. ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره من الشروط»[3].

---

(١) انظر: المصدر نفسه (ص٨٣).

(٢) المدجنون: هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان.

(٣) نفح الطيب (٦/ ٢٧٧/ ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص٨٣).

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان:

وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني «نوفمبر» مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاءوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نقضت جميعًا لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور»[(١)]، وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخْلَقَ لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنّا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يَظْفَر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال: إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها»[(٢)].

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير: «الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن أكون شقيا، وأن يذهب الملك على يدي»[(٣)]، وصاح من حوله على: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» وقرروا جميعًا التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب

---

(١) سقوط غرناطة (ص٨٥).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (ص٨٦).

مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعاني من مصائب وهو أقل من الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه»[1]، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنـــا لـــن أقـــر وثيقـــة	فرضـــت وأخضـــع للعـــدا
مـــا كـــان عـــذري إن جبنـــت	وخفـــت أســـباب الـــردى
والمـــوت حـــق في الرقـــاب	أطـــال أم قصـــر المـــدى
إنـــي رسمـــت نهـــايتي	بيـــدي ولـــن أتـــرددا
كنـــت الحســـام لأمـــتي	واليـــوم للـــوطن الفـــدى
أنـــا لـــن أعـــيش العمـــر	عبـــدًا بـــل سأقضـــي ســـيدًا[2]

ثالثًا: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول (٨٩٧ هـ)، كانون الثاني (يناير) سنة (١٤٩٢م) وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع «هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين»[3].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبًا كبيرًا فضيًا وبجانبه علم قشتالة

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر (ص٦٥).
(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ص(٣/ ١٢٤).

وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثـا أن غرناطـة أصبحت ملكـا للملكـين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكـة في حـزم أمتعة الملك المخلوع في ركـب قـاتم مـؤثر يحمـل أموالـه وأمتعتـه ومـن ورائـه أهلـه وصـحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين وكانت أمـه الأمـيرة عائشـة تمتطي صـهوة جوادهـا يشـع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منـه المدينـة إلى الأبـد ضـج الحـراس بالبكاء[1] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شـعب مـن الشـعاب المطلـة علـى غرناطـة وقف أبو عبد الله الصغير مودعا لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربـوع العزيـزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال».

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطارًا لمأساة غرناطة وقد جمعـت فيهـا كـل العـبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة:

«ولما حاولت التعليـق عليهـا ارتعشـت يـدي وتسـاقطت الـدموع مـن عـيني أسـى وخشوعًا وتهيبًا من عظمتها لأنها أصبحت كلمة تاريخية. لا بـل أعظـم كلمـة قيلـت في سقوط غرناطة»[2].

ولقد صوّر أحد الشعراء على لسانها قولها:

تـذكر الله باكيًـا هـل يـرد الـدمع ... مجـــدًا ثـــوى وعـــارًا أقامـــا

هـــدني فـــوق خطبنـــا أنـــك ابـــني ... يـــا لأم تســـقي العـــذاب تؤامـــا

لم تصـــن كالرجـــال ملكًـــا فأمســـى ... ركنـــه انـــدك فابكـــه كالأيـــامى[3]

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطـة مكانـة بارزة وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما تثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية»[4].

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ص(٣/ ١٢٥).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) انظر: سقوط الأندلس (ص٧٠).

(٤) نهاية الأندلس بتصرف (ص١٩٧) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص٦٩).

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فارس[1]، مستجيرًا بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذرًا عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعرا أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة، ومنها في مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبًا ... وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكًا لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يرمي بأفجع حتف من بهن رمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظل الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرضه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم[2]

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئا فشيئا في نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين «أو المور يسكين» لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بندًا بندًا، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال «كمينسس» على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسًا في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص ٧٠).
(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٧٨) نقلا عن سقوط غرناطة (ص٩٦).

وأحرقها[1]، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعلـه ذلـك أنـه سـوف يقضـي علـى الإسـلام في أسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من آثار مـا يكفـي لتخليـد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصولة مـن جديـد بـإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريبا عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمـر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفـلاح، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَـى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

رابعًا: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشـد وسـائل العنـف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحـول دون النزعـة الصـليبية، الـتي أسـبغت على سياسة أسبانيا الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائـد النصـارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتـبرهم نصـارىَ الإسـبان ثـوارًا وعمـلاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تمـوز (يوليه) ١٥٠١م أصـدر الملكـان الكاثوليكيـان أمـرًا خلاصـته «إنـه لمـا كـان الله قـد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيهـا، ويعاقـب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بـدينها، ومـن بقـي مـن المسـلمين أخفـى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليـغ عـن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغـص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصـادرة أمـوالهم، لتـدفع نفقـات سجهنم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المـتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقًا، سـواء بمفـرده أو مـع أثقـال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسـحق العظـام بـآلات ضـاغطة، تمزيـق الأرجـل وفسـخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المـتهم في خطـر، ولكـن التعـذيب

---

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص٩٨).

يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه[١].

وقرار المحكمة لا يمكن استئنافه، وهو سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقًا وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[٢].

ومما يذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنيَّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعا ورعبًا[٣].

«لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم فيا لها من طامة ما أكبرها»[٤].

«وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطورًا وكان أمر الله قدرًا مقدورًا»[٥].

---

(١) انظر: محاكم التفتيش (ص٩١) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص١٠٠).
(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص١٠٠).
(٣) انظر: محاكم التفتنيش (ص٩٣) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص١٠٩).
(٤) انظر: نهاية الأندلس (ص٣٢١) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص٧٢).
(٥) انظر: سقوط الأندلس (ص٧٢).

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواويين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلِمَ أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكمًا بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته(١).

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب «الأوتودافي» وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة(٢).

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيرًا ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعًا.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعًا لها ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائمًا موضع

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص١٠).

(٢) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى محمد عبد الله عنان (ص٢٤/ ٣٢) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٢).

البغض والريب وأبت أسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائمًا منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ أسباني كتب قريبًا من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حينًا في غرناطة: وكانوا يشعرون دائمًا بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمّدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سرًا بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقًا للتقاليد العربية[1].

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءًا أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم[2].

خامسًا: فتاوى هامة:

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة وكان تاريخ هذه الرسالة سنة (٩١٠هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م).

وهذا نص الفتاوى: «الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا. إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة

---

(١) أي: الأحكام الإسلامية.

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٣).

نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمّم به، فاقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ «فائتوا منه ما استطعتم». وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيرًا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلاّ رءوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا

مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا: اشتموا محمدًا. فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممدًا، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفى بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرًا بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعًا. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره. يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى»[١].

سادسًا: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة[٢]:

«يعتبر الموريسكي[٣] أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهًا وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضًا أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله،

---

(١) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان بروما، انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١/ ٢٢٥).

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٦).

(٣) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية.

ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورًا من القرآن. أو أن يتزوج طبقًا لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهنّ، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رءوس أولاده أو غيرهم تنفيذًا لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتًا إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول إنه لم ينصر إيمانًا بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين..»[1].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شئون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفيش قرونًا عدة وعندما احتل نابليون أسبانيا بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسومًا سنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في أسبانيا، ولكن رهبان «الجزويت» أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال «سولت» الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل «ليمونكي» مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل «ليموتكي» فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة، فأمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في أحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٣/ ٢٢٦،٢٢٧).

وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي(١):

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش «الدينونة» كما يسمونه، وهو عبارة عن «دكة» عالية يجلس عليها رئيس الديوان(٢)، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعًا معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ما حييت، رأينا غرفًا صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممدًا بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جن لكثرة ما لاقى من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفًا من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، يوضع فيه الرأس المعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد

---

(١) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، لمحمد الغزالي.

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت(١).

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزّق الشاب وتقطع إربًا إربًا.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جن جنونهم وانطلقوا - كمن به مس - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدقت عظامه دقًا، وسحقتها سحقًا.

وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب، فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك(٢).

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض؛ ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعًا: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عمومًا:

١- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

٢- سعى ممالك أسبانيا نحو الاتحاد وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندو) الذي أصبح ملكًا لمملكة أراجون، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة

---

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص ١١٢).

(٢) انظر: سقوط غرناطة (ص ٩٣).

فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معًا بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس[١].

٣- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)[٢].

أما شوقي أبو خليل فيقول: «والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبًا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكون منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة)[٣].

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ[٤].

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور «الله

(١) انظر: سقوط غرناطة (ص ٩٣).
(٢) المصدر نفسه (٩٤).
(٣) المصدر نفسه (ص٩٤).
(٤) انظر: سقوط الأندلس (ص٢٩).

أكبر»، وبقينا فيها زمنا، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه»[(١)].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس:

(كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم)[(٢)].

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

دَوْزن العــود وهــات القــدحا ... راقــت الخمــرة والــورد صــحا[(٣)]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام (٤٥٦هـ) خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إحَسان بن معلى:

لبسـوا الحديـد إلى الـوغى ولبسـتم ... حلـل الحريـر علـيكم ألوانـا

مـا كـان أقـبحهم وأحسـنكم بهـا ... لـو لم يكـن ببطرنـة مـا كانـا[(٤)]

٤- الاختلاف والتفرق بين المسلمين، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمرًا فظيعًا، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين؛ بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف.

قال ابن المرابط واصفًا حال المسلمين:

مـا بـال شمـل المسـلمين مبـدد ... فيهـا وشمـل الضـد غـير مبـدد

مـاذا اعتـذاركم غـدًا لنبـيكم ... وطريـق هـذا الغـدر غـير ممهـد

إن قـال لم فـرطتم في ديـنكم ... وتركتمـوه للعـدو المعتـدي

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧). (٢) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٢١١).

(٣) انظر: النصر والهزيمة لشوقي أبوخليل (ص١٢٣).

(٤) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين، لعلي محمد محمد الصلابي (ص٩٠).

تـــالله لـــو أن العقوبـــة لم تخـــف   لكفـى الحيـا مـن وجـه ذاك السـيد[1]

إن سُنَّة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» وفي رواية «**فأهلكوا**» [2].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»[3].

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف»[4].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا على التفرق والاختلاف»[5].

والاختلاف المُهلِك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يئول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضًا[6].

«وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها»[7].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص٣٣).
(٢) صحيح البخاري بشرح ابن الحجر (٩/ ١٠١،١٠٢).
(٣) (٤) المصدر السابق (٩/ ١٠٢).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٦).
(٦) انظر: السُّنن الإلهية، د.عبد الكريم زيدان (ص١٣٩).
(٧) انظر: السُّنن الإلهية (ص ١٣٩).

المذموم، لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها؛ ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقًا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة، وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يئول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول»(١).

٥- موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) السنن الإلهية (ص٤٠، ١٤١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٦).

وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]. وقوله عز وجل: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «أوثق عرى الإيمان المولاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[١].

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه-عز وجل: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»[٢].

فإذا كان هذا كله مسطرًا في كتاب ربها وسُنَّة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهدًا في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أمَا كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف، وفي ذلك مصلحة له ولهم والأندلس عامة والإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم!![٣].

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عمّا فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة -رده الله إلى أصله- أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمّه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناء يذكر.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٦).
(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الرقائق رقم (٦٥٠١).
(٣) سقوط الأندلس (ص٢٤).

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري رحمه الله: (ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلىٰ مدينة فاس - حرسها الله - ومازال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤّال، بعـد الملـك الطويـل العـريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع لا إله إلا هو)[1].

٦- التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة مُعطَّلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»**[2].

وقوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[3].

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصـرة مـا تبقـى مـن الإسـلام والمسـلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم، وأُنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخـاذلون عـن نصـرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة.

قال د. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

(قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف مـا يجـب علـيهم لمـا لاقـت هـذا المصير، ولَحَمَوْها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمـر، ذليـل المكان مهزوز القواعد)[4].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير مـن الولايـات الأندلسـية في الفـترة الزمنيـة بـين عامي (٦٢٧-٦٥٥هـ)، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس، أقل من

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (٦٧، ٦٨).
(٢) البخاري مع الفتح، كتاب المظالم، رقم (٢٤٤٢) (٥/ ١١٦).
(٣) المصدر السابق، كتاب المظالم، رقم (٢٤٤٦) (٥/ ١١٧).
(٤) انظر: التاريخ الأندلسي (ص٣٣٢).

ثلاثين عامًا تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عُبَّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

يقول المقري في نفح الطيب واصفًا استعداد النصارى لإحدى المعارك:

«وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكًا، وذهب طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك»[(١)].

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب): إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية[(٢)].

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فاهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفًا عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقيّ بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم مَن قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردىً أو من ردى[(٣)]
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد
ياحسرتى لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد[(٤)]

---

(١) نفح الطيب (١/ ٤٤٩، ٤٥٠) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص٤٥).
(٢) انظر: عوامل النصر والهزيمة (ص١٢١).
(٣) انظر: سقوط الأندلس (ص٤٦).
(٤) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).

٧- غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[١].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخ مليء بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد استمات النصارى في حروبهم للمسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عمومًا وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصًا في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

٨- إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب حيث كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد[٢]

---

(١) سقوط الأندلس (ص٤٠).

(٢) سقوط الأندلس (ص٣١).

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم[1] وسَلَّطَ عليهم سيفًا من سيوفه..)[2].

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعًا وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها .

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: «وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمنًا لبقائهم في السلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته»[3].

٩- عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهدًا مشكورًا لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: (فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعًا واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنبًا يتوب»[4].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس

---

(١) في هذا اللعن نظر، لكون هؤلاء الحكام مسلمين ..فليراجع.
(٢) مجموع رسائل ابن حزم (٣/١٧٦).
(٣) التاريخ الأندلسي (ص٣٢٥).
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني (ص ٩٥، ٩٦).

بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[(١)] بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله -: «ولا يغرنك الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[(٢)].

١٠- الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

«ففي عام ٦٤٣هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عددًا من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابر للنصارى»[(٣)].

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادي الأولى عام ٦٤٥هـ، قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهرًا اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان ٦٤٦هـ دخل فرناندوا الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[(٤)]. ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فرارًا بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فيما المقام بها إلا من الغلط
السلك يُنشر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منشورًا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف النجاة مع الحيات في سفط[(٥)]

---

(١) سقوط الأندلس (ص٣٥).
(٢) مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣).
(٣) نهاية الأندلس (ص٤٣) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص٢٢).
(٤) انظر: سقوط الأندلس (ص٢٢).
(٥) نفح الطيب (٤/ ٣٥٢) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص٤٩).

١١- سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: «ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر»[١]. وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام (٦٣٥هـ وعام ٨٩٣هـ) من قبل تسعة وعشرين حاكمًا، حتى أن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدم عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم[٢].

١٢- الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من

(١) التاريخ الأندلسي (ص٣٦٨).

(٢) انظر: سقوط الأندلس (ص٥١).

النصرانية عام (٨٩٩م)، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث - الناصر وكان شجاعًا حازمًا، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم «نصف قرن»، فكانت أول مدينة استسلمت له أستجة ثم لحقت بها مدينة البيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت «أرخدونة» أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في ٩١٣م وأخضع «ريه» التي كانت ملاذًا لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس ٣٧ عامًا، وحاصر طليطلة سنة ٩٣٢م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزبًا عبيديًا رافضيًا في الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقه شئون [١].

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كان بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي

(١) انظر: ابن عذارى (١/ ٤٧) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٦٢ إلى ٢٦٧) .

وغيرهم من ملوك القوط ولم تعط مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين[1].

ثامنًا: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

١- إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا في الدنيا وهلاكًا وعذابًا في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم. قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٢- لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه وأصبح في ضنك من العيش ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:٢٤].

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمرًا ونهيًا فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: «كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[2].

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٣٤٦). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس، سقوط الأندلس،د. ناصر العمري، مصرع غرناطة، شوقي أبوخليل، عوامل النصر والهزيمة،شوقي أبوخليل، السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د.عبد الرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

(٢) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم (٤٦٧٠).

٣- إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تـذل وتهـان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكـم الله في مجتمعاتهم.

٤- إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم علـى شـعب الأنـدلس كلـه وفـرط أهـل الأندلس في الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر وانعكـس ذلـك في حركـة الفتوحـات الإسلامية التي توقفت ولذلك حرمت شـعوب كـثيرة مـن سـعادتها في الـدنيا والآخـرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائـف وكثير مـن أتبـاعهم إلا مـا رحـم الله وتركـوا الحـق وانقـادوا للضـلال وابتلـوا بالنفـاق وفضحهم الله بذلك وحرموا التوفيق والرجوع للصواب وخف دينهم وضعف إيمـانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفـس والأمـوال والأعـراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت علـى إثرهـا عـداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

٥- وبسبب الابتعاد عن كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ سـهلت مهمـة النصـارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصّلوا على مكاسب كـبيرة وغـاب نصـر الله عـن ملوك الطوائف وأهل الأندلس وحرمـوا مـن الـتمكين وأصـبحوا في خـوف وفـزع مـن أعدائهم، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصـارى مـن المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

٦- إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

٧- إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصـي الله تعـالى

ممن يعرفونه سلط عليهم من لايعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله النصارى على المسلمين في الأندلس وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ثم خلصّ الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

٨- إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

* معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

* كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقانًا عجيبًا.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي:

هذا جزاء مخالف مثلي أبى ... تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سودت وجهك بالمعاصي فالتمس ... وجهًا للقيادة غير مسود

من ذا يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدي بنبيه أو يهتدي[1]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لألفونسو ملك النصارى: «أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك»[2].

* * *

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص٦١).
(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي (ص٣٣٧) نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (ص٢٠،٢٣) كذلك الطوائف، محمد عبد الله غسان، (ص٩٠،٩١).

المبحث الثاني

دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغراوة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى، وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومترية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة:

أولاً: عبد الحق بن محيو المريني:

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[١]. وقد مات عبد الحق عام سنة (٦١٤هـ)، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة[٢]: أبو سعيد عثمان، مات سنة (٦٤٢هـ)، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة (٦٥٦هـ)، ويعقوب بن عبد الحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة (٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس[٣].

ثانيًا: المنهج الذي قامت عليه الدولة:

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية اقنعت بعض المؤرخين[٤] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية وبأنهم لم

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٥٥).

(٢) لم يذكر الشيخ (حفظه الله) الابن الرابع لعبد الحق بن محيو المريني.

(٣) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٠).

(٤) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي، والدكتور أحمد مختار العبادي.

يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوبًا عسكريًا وسياسيًا للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوبًا سياسيًا بارعًا، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع[1]، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام (٦٤٠هـ / ١٢٤٣م). ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[2].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

ووضع خطوطًا دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس، وضم إقليم سجلماسة للدولة في صفر (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧).
(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧).

نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة. وفي عام (٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزًا للتجارة والعلم[١].

ثالثًا : حركة التوحيد للشمال الإفريقي:

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١- ٧٥٢هـ/ ١٣٣١- ١٣٥١م). وولده أبي عنان فارس (٧٥٢/ ١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م) ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس وعاد إلى حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس ودخل تونس في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، لتمتد مملكته من مسراتة في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة (٧٥٢/ ١٣٥١م)، ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي وأزال دولة بني زيان سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس في سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصا في فاس وطمع بعض أقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته، فوفاه الأجل في العام التالي[٢].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي وتقلص

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢١٩، ٢٢١).

(٢) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة (ص١٤١).

النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

ويدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م) واقتصرت الدولة المرينية على فاس[1].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هَمَّ لهم إلا مصالحهم الشخصية وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣-٨٦٩هـ/ ١٣٢٠-١٤٦٥م) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩هـ / ١٤٦٥م) وبذلك انتهت دولة بني مرين[2].

رابعًا: أسباب سقوط دولة بني مرين:

١ – دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

٢ – دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بين بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

٣ – ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شئونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر (ص١٤٢).

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧).

داخلية ونزاع بين الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

٤- المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حربا على هذه الدولة التي شكلت خطرًا على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار[١].

٥- تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبب في قيام الشعب بثورة ضد دلة بني مرين وإزالتها من الوجود.

٦- أجل الله في هذه الدولة؛ لأن الدول لها آجال لا تتعداها وغير ذلك من الأسباب.

خامسًا: الدولة الوطاسية:

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان الدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه.

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام (٨٦٨هـ)، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشا لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ (٣٠ ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونسو الخامس ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيون عن أراض من المغرب، واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[٢].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين (ص١٤٢).
(٢) انظر: موسوعة المغرب (٣/ ٢٣، ٢٤).

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانئ المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (١٤٩٢م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ود الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حربًا جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام (٩٥٦هـ).

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فَرَّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام (٩٦١هـ) وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في نفس العام (٩٦١ هـ)[1].

سادسًا: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

١- دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

٢- عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٥٣).

٣- ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها. وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

٤- الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ.

٥- التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة، بين المغاربة.

سابعًا: السعديون:

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب ﷺ[١]. ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف بها خصومها من الطعن في نسبها[٢]. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرى الأستاذ شوقي أبوخليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[٣] رسول الله ﷺ

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم[٤]، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عن الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف»[٥].

أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن

---

(١) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص٣١).
(٢) انظر قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٢).
(٣) الظئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.
(٤) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص٣٢).
(٥) المصدر السابق (ص٣٢) نقلاً عن الاستقصا (٦/٥).

محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ﷺ(١).

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيما في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة (٩٢٣هـ)، وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (٩٤٠هـ) اتفق مع الوطّاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من (تادلة)(٢) إلى (السوس)، والوطاسيون من (تادلة) إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (٩٦٤هـ) وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (٩٨١هـ)(٣) فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظًا غليظًا مستبدًا ظالمًا، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية(٤)، ووصفه السلاوي بقوله: وكان السلطان المذكور فقيها أديبًا مشاركًا مجيدًا قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبرًا تياهًا غير مبال بأحد،

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ١١٤، ١١٥).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤). (٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: وادي المخازن (ص٢٣).

وغير متوقف في الدماء، عسوفًا على الرعية، ومن شعره قوله:

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقًا ... فإن تأخر أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضًا:

ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم ... وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل وردًا وريحانا[(١)]

إلاَّ أن هذا المتعجرف السَّفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسنًا، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم[(٢)].

وما إن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس، حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القوّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعًا وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣).

ثامنًا: من إصلاحات عبد الملك وأعماله:

١- أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

٢- اهتم بالتجارة البحرية، وكانت الأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سببًا في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣- أسس جيشًا نظاميًا متطورًا واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

---

(١) الاستقصاء (٥/ ٥٨) نقلاً عن وادي المخازن (ص٣٤).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤).

٤- استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥- فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوربيين، احترموه وأجلوه.

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة:

«كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيرًا بطبيعته، وكان يحسن اللُّغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعرًا مجيدًا في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك»[١].

٦- اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازًا شوريًا للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكّان عامّة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شئون الدولة[٢].

تاسعًا: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: (٣٠ جمادي الثانية ٩٨٦هـ الموافق: ٤ آب-أغسطس- ١٥٧٨م).

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها:

١- أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث (١٥٢١-١٥٥٧م).

٢- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حربًا مقدسة ضد

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص٣٧).

(٢) المصدر السابق(ص ٣٩، ٤٠).

المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوربا، وزاد غـروره بعـد مـا حققـه البرتغـاليون مـن اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عمومًا، وعلى المغرب خصوصًا، لقـد جمـع ذلـك الملـك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطـر خـارجي مـن جهـة أخـرى، فخطـط لغـزو واحتلال المغرب(١).

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصـارى الوقـوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عَمَّيه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصـور، مقابل أن يتنازل له عن موانئ وشواطئ المغرب «فشرط عليه أن يكـون للنّصـارى سـائر السَّواحل، وله ما وراء ذلك»(٢).

١- حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغـاليين والطَّليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب(٣).

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨م.

٢- الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: «أن اقصـدوا وادي المخـازن للجهـاد في سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكـل المخلـوع أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنصارى(٤) حتى عـدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص ٤٥، ٤٦).
(٢) انظر: الاستقصا (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص٤٦).
(٣) انظر: وادي المخازن.
(٤) انظر: وادي المخازن (ص٥١).

بكل ما أمكنه، وتهددهم قائلاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها:

(الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرِّضا عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشُّرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت على نفسك اللّوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النُّصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال ﷺ: «**إني لا أستعين بمشرك..**» والاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديمًا: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾، إيه أنت مع الله ورسوله.

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢][1].

---

(١) الاستقصا (٥/ ٧٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص٥٣).

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطئوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن نتقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)[١]. فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين، وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيرًا التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر[٢]. وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

٣- قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):

الجيش البرتغالي:

١٢٥,٠٠٠، ومايلزمهم من المعدات، والرواية الأوربية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راحل، و٢٠٠٠ فارس، و٣٦ مدفعًا، مقابل: ٥٠,٠٠٠ راجل في الجيش المغربي، و٢٢,٠٠٠فارس، و١,٥٠٠ من الرماة، و٢٠ مدفعًا.

ذكر أبو القاضي في المنتقى المقصور: (عدد الجيش البرتغالي مائة ألف وخمسة وعشرون ألفًا)[٣].

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفًا، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[٤].

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي.... وغيرهم عدد كبير... مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعًا... وكل هذه القوى

(١) انظر: وادي المخازن (ص٥٣).
(٢) المصدر نفسه (ص٥٤).
(٣)، (٤) انظر: الاستقصا (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص٥٦).

البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين: ٣٠٠-٦٠٠ رجل على الأكثر[1].

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقًا في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعًا فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جدًا بسبب:

١- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغورًا كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

٢- التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن؛ لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقاد هذا الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي- أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسنًا رائعًا وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعف عنها، ولم يأخذ منها شيئًا[2].

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميدانًا للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكمًا عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها»[3].

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة وفرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص٥٦).
(٢) المصدر نفسه(ص٥٨).
(٣) المصدر نفسه (ص ٦٢).

البرتغاليين، واستثمار النصر[١].

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) يومًا مشهودًا في تاريخ المغرب، ويومًا خالدًا في تاريخ الإسلام. وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيبًا في جيشه، **مذكرًا بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر**[٢]:

﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج:٤٠].

﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال:١٠].

كما ذكر بوجوب الثبات:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ**﴾ [الأنفال:١٥].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأنفال:٤٥].

وبضرورة الانتظام:

﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ [الصف:٤].

وذكر أيضًا حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرأ آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[٣].

ولم يأل القسس والرهبان جهدًا في إثارة حماس جند أوربا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي أتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذانًا ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقًا كالسهم شاهرًا سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص ٦٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦٢).

(٣) انظر: وادي المخازن (ص٦٤).

خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيرًا أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلانًا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلانًا يلزم الراية، وفلانًا يتقدم وفلانًا يتأخر)[(١)].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الادبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقًا في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[(٢)].

جاء في (درة السلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة (مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د ٤٢٨، ص١٤)[(٣)].

وابن أخيه[(٤)] بالنصارى اعتصما ... وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[(٥)] ... بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا ... ينيف عن مائة ألف سمعا
فقيض الله له المنصورا[(٦)] ... ملكًا شجاعًا أسدًا هصورًا
فخلص الإسلام من يد اللعين ... بصبره على لقاء المشركين
مامنهم إلا قتيل وأسير ... في ساعة من الزمان[(٧)] ذا شهير

(١) الاستقصا (٥/ ٨٠) نقلًا عن وادي المخازن (ص٦٦).
(٢) انظر: وادي المخازن (ص٦٦،٦٧).
(٣) دعوة الحق، السنة (١٩) العدد (٨) رمضان (١٣٩٨هـ) ،(ص٥٦) نقلاً عن وادي المخازن (ص٦٧).
(٤) إشارة إلى المتوكل.
(٥) بستيان: لضرورة الوزن وإلا فهو سبستيان.
(٦) أحمد المنصور،أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، وكان جديرًا بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة.
(٧) إشارة إلى قصر مدة المعركة.

مات بها بستيان اللعين فماله عن الردى معين
ثم محمد[1] الذي أتى به مات غريقًا[2] يومه فانتبه
لحكمة الله العظيم القاهر أفادهم وزين المنابر
بذكر عمه أبي العباس الحازم الرأي شديد الباس
نجل الرسول المصطفى المختار به زها المغرب على الأقطار[3]

عاشرًا: أسباب نصر وادي المخازن:

١- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، وحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

٢- التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

٣- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

٤- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية، وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

٥- الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

---

(١) محمد المتوكل المسلوخ.
(٢) في نهر وادي المخازن
(٣) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

٦- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

٧- تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

٨- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

٩- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[١].

١٠- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم.

وغير ذلك من الأسباب.

الحادي عشر: نتائج المعركة:

١- أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

٢- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

٣- ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوربا تخطب ودّها واضطر ملك البرتغال الجديد «الرّيكي» أن يرسل وفدًا إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة.

ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة[٢].

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص٧٢، ٧٥).

(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور)[١].

٤- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفًا نتائج المعركة:

«وقد كان مخبوءًا لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين- لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب»[٢].

٥- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك؛ صليبي حاقد (سبستيان ملك البرتغال)، وملك مخلوع خائن (محمد المتوكل)، ومجاهد شهيد (عبد الملك المعتصم بالله).

٦- سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

٧- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

٨- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوربا حيث رأو أهمية اتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب[٣].

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة (٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م).أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[٤].

---

(١) الاستقصا (٥/ ٩٢) نقلاً عن وادي المخازن (ص٧٠).

(٢) الاستقصا (٥/ ٨٥،٨٦) نقلاً عن وادي المخازن (ص٧١).

(٣) انظر: وادي المخازن (ص٧٦).

(٤) انظر: وادي المخازن (ص٣٧) نقلاً عن الاستقصا (٥/ ١٣٦).

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز: (فاس، ومراكش بتارودانت.....) ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

أ- من أشهر شيوخه:

١- أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

٢- شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

٣- أبو زكريا يحيى السراج.

٤- محمد بن يوسف الدرعي.

٥- سليمان بن إبراهيم.

٦- موسى الروداني(١).

ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

١- «المعارف في كل ماتحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الإستراتيجي القتالي.

٢- مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»**(٢).

٣- كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحيانًا(٣).

وصفه السلاوي فقال:

(نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة(٤) لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره(٥). كان طويل القامة ممتلئ الخدين، واسع المنكبين،

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص٣٨).

(٢) حاول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.

(٣) انظر: وادي المخازن (ص٣٨).

(٤) ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره. (٥) أي: طفولته.

تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج[(١)] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل)[(٢)].

ج- إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفًا لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تمامًا، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوربي والقضاء المغربي في القرنيين (١١و١٢هـ / ١٦، ١٧م) فقال:«في الوقت الذي كانت أوربا في العصر السَّعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم»[(٣)].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كليومترًا بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

(١) البلج: تباعد ما بين الحاجبين. (٢) انظر: وادي المخازن (ص٣٩).

(٣) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن (ص٤١).

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع(١).

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرُّتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك، ومن أهم هذه القيادات، إبراهيم بن محمد السُّفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصًا في مينائي العرائش وسلا(٢).

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاهية والخصب لبلاده(٣).

د- انهيار الدولة السعدية:

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية.

وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

١- الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعًا وانهيارها.

٢- ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة

---

(١) انظر: وادي المخازن (ص٤٣،٤٢). (٢) انظر: وادي المخازن (ص٤٤).

(٣) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوربية،د.نور الدين حسام (ص ٤٥٦، ٤٥٨).

عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغل الأمراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

٣- دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع في كل امارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

٤- ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

٥- تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار حيث لا يزال طفلاً صغيرًا وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم، انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام (١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م) وأزالوا نهائيًا معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ - ١٤١٢هـ)، وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولاتزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[١].

* * *

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٤٨).

المبحث الثالث

بنو عبد الواد (بنو زيان)

أ- بنو عبد الواد «بنو زيان»:

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم، وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[1].

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريبًا. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يغمر اسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعليًا وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م-٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) أمام الضربات المرينية قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصارًا استمر لمدة عام كامل، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[2].

---

(١) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤).

(٢) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص١٣٤).

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بني عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائم في عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م).

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذًا لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريق على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعًا حصينًا بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م) إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[1]:

١- ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه: (كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأسًا وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعًا بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثارة قبل الملك وبعده، وكان مرموقًا بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة،

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص١٣٦).

فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وصيرهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الآلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء)[١].

٢- حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

٣- حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء، فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

٤- إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

٥- اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوربا، فكان يتم التبادل بين التجار ما يحملوه من أفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوربا وأخصها السلاح.

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكانت التجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

٦- اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى أن يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو شقيق المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م- ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) وكان هذا الأمير محب للعلماء والأدباء، وكان هو نفسه أديبًا شاعرًا وله كتاب اسمه: (نظم السلوك في سياسة الملوك) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال[٢].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب

---

(١) ابن خلدون في تاريخه (٧/ ٧٩).

(٢) المغزب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص١٣٦).

والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفح الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق[1].

ب- التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى:

١- **السلطة العسكرية:** ويتولاها صاحب السيف.

٢- **السلطة الإدارية:** ويتولاها صاحب القلم.

٣- **السلطة القضائية:** ويتولاها قاضي القضاء.

٤- **السلطة المالية:** ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسئولي السلطات السابقة شخص يطلق علية (مزاول)، ولة حق الإشراف على كل هؤلاء وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[2].

ج- أسباب سقوط بني عبد الواد:

١- النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

٢- قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

٣- ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

٤- مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) ثم استيلاؤهم على وهران (٩١٤هـ)، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر،

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شبلي (٤/ ٢٥٢).
(٢) المصدر السابق: (٤/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[١]، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

٥- ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حدًا لعدوان الإسبان وانتهى الأمر بزوال دولة بني زيان في عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الإسبان[٢] وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيمًا، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الواد، فكان ذلك التخاذل والتواكل سببًا في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥هـ/ ١٥١١م اقتحم النصارى الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيرًا من معالم المدينة[٣].

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي.

* * *

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

(٣) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٢٣٥).

المبحث الرابع
الدولة الحفصيـــة

أ- الدولة الحفصية:

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية[(١)].

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبوحفص من زعماء المصامدة، وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[(٢)].

وبلغ من احترام عبد المؤمن له، وحسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وأفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور[(٣)] أسند إلى أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي أمر إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر

(١) ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (١/ ٣٧٤).
(٢) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية (ص٢٢٠).
(٣) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص١٢١).

شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية[١].

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[٢].

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي بالانفصال منها:

١- انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها من موقعة العقاب سنة (١٢١٢م).

٢- رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) لتعاليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.

٣- قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته، ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان[٣].

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين[٤]، ودعا له عدد

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص١٢١).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٨٠). (٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٨٠).
(٤) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٢٧).

من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية، وإلى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفدًا برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشدًا قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جارها[1] وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاشى مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أصبح أهلها جزرًا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذارًا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسمًا ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسًا ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدى بيعًا ... وللنداء غدا أثنائها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثاني أصبحت درسا
وأربعًا نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسى
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا ... عيث الدبا في مغانيها التي كسبا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا

[1] انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠).

فـأين عـيش جنينـاه بهـا خضـرًا ... وأيـن عصـر جلينـاه بهـا سلسـا
محـا محاسـنها طـاغ أتـيح لهـا ... مـا نـام عـن هضـمها حينًـا ولا نعسـا
ورج أرجاءهـا لمـا أحـاط بهـا ... فغـادر الشـم مـن أعلامهـا خنسـا
خـلا لـه الجـو فامتـدت يـداه إلى ... إدارك مـالم تطـأ رجـلاه مختلسـا
وأكثـر الـزعم بالتثليـث منفـردًا ... ولـو رأى رايـة التوحيـد مـا نبسـا
صـل حبالهـا أيهـا المولى الـرحيم فمـا ... أبقـى المـراس لهـا حـبلاً ولامرسـا

إلى أن قال:

طهـر بـلادك منهم إنهـم نجـس ... ولا طهـارة مـا لم تغسـل النجسـا
وأوطـئ الفيلـق الجـرار أرضـهم ... حتـى يطـأطئ رأسًـا كـل مـن رأسـا
وانصر عبدًا بأقصى شـرقها شـرقت ... عيـونهم أدمعًـا تهمـي زكًـا وخسـا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكـت ... داء مـا لم تباشـر حسـمه انتكسـا
فـاملأ هنيئًـا لـك التأييـد سـاحتها ... جـردًا سـلاهب أو خطيئـة دعسـا
واضـرب لهـا موعـدا بـالفتح ترقبـه ... لعل يوم الأعادي قـد أتـى وعسـى[(١)]

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين[(٢)].

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية، وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية قد حققت أهدافها حيث استطاع

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠، ١٢٢).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٢٣).

أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شـرقًا إلى مدينـة الجزائر غربًا، وبدأ كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[١].

ب- ولاية العهد:

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة.

وفي عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وخـول لـه معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العـدل، وجعـل أهـل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد، ومما جعل في وصيته قبل موته في عام (٦٤٧هـ/١٢٤٩م):

١- المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

٢- تفقده للجيش وحسن معاملته لأفـراده حسـب درجـاتهم، فـلا يلحـق السـفيه بالكبير، فيجرئ السفيه عليـه، ويفسـد نيـة الكـبير، فيكـون إحسـانه مفسـدة لـه في كـلا الوجهين.

٣- أوصاه الأمير بعدم الجزع عنـد حـدوث الملمـات؛ لأن الجـزع يـؤدي إلى القلـق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

٤- أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القـول والإخـلاص في العمـل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعًا، فإن في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

٥- عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحـث عـن سيرة القضاء وعن أحكامهم، ومهما دعُي للكشف عن ملمـة فليكشـفها، ولا يـراع مـن

(١) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٢٨).

حكمه أحدًا إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

٦- أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

٧- أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متماد في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته؛ لأنه في إقالته ما يشجعه على القول، والقول يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليسم داءه قبل انتشاره، ويتدارك أمره قبل إظهاره.

٨- عليه أن يزهد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها، بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا، وينال بها مرضاة الله في الآخرة[(١)].

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام (٦٥٦هـ) وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) وبايعه شريف مكة بالخلافة[(٢)].

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[(٣)]، وعمر ﷺ كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة[(٤)].

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على

(١) ابن خلدون، تاريخ الدول (١/ ٤٠٦،٤٠٨).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص١٢٣).
(٣) المصدر السابق (ص١٢٤). (٤) المصدر السابق (ص١٢٤).

الدولة الحفصية وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قوم أبو حفص أب لهم ... وما أدراك والفاروق هو أول[1]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى.

يقول السلاوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفًا لأهل المغرب، واستجلابًا لمرضاتهم، وإتيانًا لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم...»[2] واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين»[3].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وانتصر على الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضربًا للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله. وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء. وبهذا

---

(١) انظر: السلاوي «الاستقصا» (٣/ ٢٨، ٢٩) نقلاً عن العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٢٧).
(٣) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٢٧).

العمل كسب بيبرس نفوذًا أدبيًا وروحيًا وسياسيًا ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب....إلخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوعًا وكرمًا متميزًا وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوبًا تابعًا له بجانب شريف مكة إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها(١).

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصدًا للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوربا، واهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه(٢).

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات(٣)، وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف

---

(١) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص١٢٨).
(٢) عام (١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٥٠) نقلاً عن العبادي، دراسات (ص١٢٩).
(٣) المغرب الكبير (٢/ ٨٧٩).

بالمستنصر(٧٧٢هـ/ ١٣٧٠-٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، واستطاع أن يقف أمام هجوم من النصارى على المهدية سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م)، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئًا من هيبتها وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، وعلى بسكرة سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م).

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر. وتوفي أبو فارس سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهرًا ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) ويهزم عمه أبا الحسن[(١)].

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها، وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنا أسودًا والرجال تهابنا فجاء زمان فيه تخشى الأرانب[(٢)]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة (٩٤١هـ/ ١٥٣٤م) فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان، واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م)[(٣)].

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام (٩٨١هـ/ ١٥٧٣م)[(٤)].

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٠٥). (٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٠٥).

(٣)انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص١٣٢).

(٤) انظر: تاريخ الفتح العربي (٣٤٢).

جـ- طرابلس والدولة الحفصية:

اتخذ بنو حفص تونس مركزًا لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاني، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧-٦٦٥هـ) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة، وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثًا من الحج إلى طرابلس، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميرًا لهم سنة ٧١١هـ، ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها، واحتل تونس وجعل ابنه أميرًا عليها، ثم سار شرقًا حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس[(١)].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة (٨١٨هـ) الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[(٢)].

د- طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل إليهم حكم طرابلس من سنة (٧٢٤هـ) وظلوا يحكمونها - بدون استقرار- حتى قبيل غزو الإسبان لها[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٣٧٨). (٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ١٧٩).

(٣) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٩).

ومن ولاة بني ثابت:

* ثابت بن محمد (الأول) (٧٢٤هـ).

* محمد بن ثابت (٧٣٠هـ).

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة (٧٤٨هـ)[1].

ثابت بن محمد بن ثابت الثاني (٧٥٠هـ):

استطاع تجار جنوة أن يخدعوا الطرابلسين ويحتلوا المدينة في عام (٧٥٥هـ) وهرب ثابت من المدينة، وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواتة بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكمًا لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس بعد ما مكث الجنويون حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو أخوانه في العقيدة[2].

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميرًا عليها إلى أن توفى عام ٧٦٦هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيئ المعاملة عاجز الرأي مستبدًا في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر، ووقف

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٣).

الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي، وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء[١].

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة (٧٩٢هـ) ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا إنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران. وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجل من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها[٢]، بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة[٣].

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام (٨٣٣هـ).

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروط:

١- أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

٢- أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

٣- أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزمًا ورأيًا وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي واليًا إلى أن توفي (٨٥٨هـ) وكانت مدة حكمة ٢٥ سنة كانت أيام رغد وهنأ على أهل طرابلس[٤].

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص٣٥٥).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص٣٤٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣٥٧).
(٤) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٧).

هـ- ثورة بني غراب:

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب، وقام رجل يقال له منصور فأصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة واختار الطرابلسيون الشيخ منصورًا وهو الذي سعى في الإصلاح واليًا عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر. وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكمًا على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة ومسلاتة وبني وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام (٨٨٥هـ)، وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثني عشرة سنة، وتوفي عام (٨٩٨هـ) واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكمًا عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط.

وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً بالولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات[1].

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة (٨٣٣هـ) إلى أن احتلها الإسبان سنة (٩١٦هـ) كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم[2]. وحانت الفرصة للأسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة الآف من

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص٣٥٧).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص٣٦٠).

الإيطاليين والمالطيين. وفي ٨ من ربيع سنة (٩١٦هـ) تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر، سنة (٩١٦هـ)، الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسور المدينة ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ- ١٥٣٥م، واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م، حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموما والشمال الإفريقي خصوصًا.

و- اسباب سقوط الدولة الحفصية:

١ - اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظّر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي فأصبح الولاء ضعيفًا للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

٢- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

٣- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

٤- استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوربيين عموما فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

٥- ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

٦- تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدو في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

٧- كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه بسبب التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

* * *

نتائــــج البحث

١- يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.

٢- يعتبر منهج ابن تومرت خليطًا من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

٣- لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

٤- يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع.

٥- أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة اصلاحية، لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التي جاءت في الكتاب والسنة، بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

٦- كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.

٧- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

٨- تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروبًا ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي.

٩- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في: إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثيًا في أسرته.

١٠- لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفيًا وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك تكتيكًا من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

١١- تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥٨هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في (٥٦٣هـ)، وكان أبو يعقوب مولعًا بحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

١٢- عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام (٥٦٧هـ).

١٣- اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام (٥٥٩هـ) وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام (٥٦٣هـ).

١٤- قامت في المغرب في قفصة في عام (٥٧٥هـ) ثورة ضد الموحدين بقيادة علي ابن المعز بن المعتز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام (٥٧٦هـ).

١٥- عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصرًا حازمًا على النصارى في الأندلس، لعدة أسباب منها: نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية

حتى عند حصاره لأعدائه، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصًا على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

١٦- توفي السلطان يوسف في ٥٨٠هـ ودفن في تينمل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

١٧- تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالأمر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

١٨- صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين.

١٩- عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله.

٢٠- عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعدادًا للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

٢١- استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصرًا حاسمًا على النصارى في الأندلس في معركة الأرك عام (٥٩١هـ) وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي من أهمها: ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى.

٢٢- نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، وأسند المهام إلى أهلها....إلخ.

٢٣- طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

٢٤- توفى السلطان يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة.

٢٥- تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام ٥٩٥هـ واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله، الأقصى والأوسط والأدنى وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصدًا جهاد النصارى في الأندلس وانهزم في معركة العقاب عام (٦٠٩هـ) أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسمومًا عام (٩١٠هـ).

٢٦- بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك للأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

٢٧- تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان لصغر سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه سبب في هزيمة العقاب.

٢٨- لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي، والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة.

٢٩- بعد زوال دولة الموحدين في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات من أهمها، دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

٣٠- كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها،

موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدراة الصراع العسكري والسياسي.

٣١- ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصرًا حاسمًا على النصارى في معركة قرب إستجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها: اهتمامه بعنصر الاستطلاع، إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

٣٢- كانت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

٣٣- كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله فأنزل الله نصره عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم في عام (٧١٩هـ)، وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفًا.

٣٤- كانت موقعة طريف في عام (٧٤١هـ) والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي، ووالد الوزير الغرناطي لسان الدين الخطيب.

٣٥- اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة في عام (٨٨٧هـ)، واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا أنه وقع أسيرًا بيد النصارى عام (٨٨٨هـ).

٣٦- استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد الله الصغير، وأطلق سراحه في الوقت الحرج، الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة، بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع.

٣٧- في عام (٨٩٧هـ) حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

٣٨- كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.

٣٩- حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

٤٠- كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها: تفكك وحدة الشمال الإفريقي، الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

٤١- لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

٤٢- زالت دولة الموحدين من الوجود عام (٦٦٨هـ) واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

٤٣- حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله، الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام (٨٦٩هـ)، وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس.

٤٤- من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين: دسائس ملوك الإسبان، وتحالف غرناطة

معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولي الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال على مواني الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

٤٥- بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م).

٤٦- استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام (٩٥٦هـ) وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها: دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

٤٧- استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام (٩٨٣هـ).

٤٨- كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

٤٩- حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصارًا حاسمًا على النصارى في معركة وادي المخازن في عام (٩٨٦هـ) وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

٥٠- استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

٥١- كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحرًا في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.

٥٢- استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطًا نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

٥٣- بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات وانتهت فعليًا على يد قبيلة الشبانات العربية في عام (١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م) وأزالوا نهائيًا الأسرة السعدية.

٥٤- لم تستطع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ/ ١٤١٢م) وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

٥٥- حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام (٩١٥هـ/ ١٥١١م) وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) على يد الفاتحين العثمانيين.

٥٦- حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) على يد العثمانيين.

٥٧- سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام (٩١٦هـ) ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا في عام (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

* * *

أهم مراجع البحث

١- ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.
٢- ابن خلدون، أبوزيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.
٣- أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.
٤- ابن ماجه للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.
٥- أشراط الساعة للوابل، يوسف عبد الله الوابل، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ،١٩٩١م، دار ابن الجوزي.
٦- إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.
٧- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣،١٩٨٣م.
٨- المغرب الكبير، د.السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
٩- البيذق أخبار المهدي ابن تومرت، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفسنال، باريس ١٩٢٨م.
١٠- الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.
١١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م.
١٢- النهاية، الفتن والملاحم، للحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
١٣- المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٩٠هـ.
١٤- النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني.
١٥- الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
١٦- الحموية، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.
١٧- أخبار المهدي، تحقيق عبد الحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.

١٨- الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٩م.
١٩-الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.
٢٠- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٢١- الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د.علي أحمد، دار شمأل دمشق، ١٩٩٥م.
٢٢-النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري الآتابكي، وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر.
٢٣- المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢٤- التكملة، لكتاب الصلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار.
٢٥- العقاب، شوقي أبوخليل، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.
٢٦- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٢٧- السنن الإلهية، د.عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
٢٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
٢٩- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.
٣٠- الأعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
٣١- الإمام مالك بن أنس، عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
٣٢- الأرك، د. شوقي أبوخليل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
٣٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.
٣٤- الإاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
٣٥- الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي، مطبعة الأزهار البارونية.
٣٦- الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق، سنة ١٤٠١هـ.
٣٧- بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د.أحمد فكري ١٦-٢٠ اكتوبر ١٩٧٦م شباب الجامعة.
٣٨- تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن، دار الحيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر ١٤١١هـ،

١٩٩١م.
٣٩- تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.
٤٠- تاريخ عصر النهضة الأوربية، د. نور الدين حسام، دار الفكر، طبعة ١٩٦٨م.
٤١- تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.
٤٢- تاريخ الأندلس، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٤٣- تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، مؤسسة شباب الجامعة، طبعة ١٩٨٦م.
٤٤- تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، د. عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٤٥- تفسير الرازي للإمام الفخر الرازي.
٤٦- تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
٤٧- تفسير الألوسي، روح المعاني للإمام الألوسي.
٤٨- البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.
٤٩- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
٥٠- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.
٥١- دعوة الحق، السنة ١٩، العدد ٨، رمضان ١٣٩٨هـ.
٥٢- ديوان التحقيق والمحاكمات لمحمد عبد الله عنان.
٥٣- دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.
٥٤- دولة المرابطين، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٥٥- دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة ١٣٤٣هـ.
٥٦- رحلة ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، دار صادر، ودار بيروت ١٩٦٤.
٥٧- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.
٥٨- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.
٥٩- درء تعارض العقل والنقل الإمام شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم بن تيمية.

٦٠- روض القرطاس، لأبي الحسن علي بن عبد الله، الانيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
٦١- سقوط الأندلس، د.ناصر العمري، مؤسسة المؤتمن، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٦٢- سقوط غرناطة، شوقي أبوخليل، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.
٦٣- سقوط دولة الموحدين، د. امراجع عقيلة الغناكي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨ منشورات جامعة قاريونس.
٦٤- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
٦٥- سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
٦٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت١٠٨٩).
٦٧- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦هـ.
٦٨- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث.
٦٩- صحيح الجامع للألباني، تحقيق، الشيخ محمد ناصر الدين، الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
٧٠- صلاح الأمة في علو الهمة، د.سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٧١- صلاح الدين بطل حطين، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة،الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٧٢- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٦٤م.
٧٣- عقيدة أهل السنة والجماعةوالأثر في المهدي المنتظر، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
٧٤- عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، حسن مؤنس.
٧٥- عقائد الإمامية، لمحمد رضا ظافر.
٧٦- عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٧٧- غرناطة في ظل بني الأحمر، ديوسف شكري فرحات، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
٧٨- فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ

الإسلامي في الشمال الإفريقي.
٧٩- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
٨٠- فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد قاسم.
٨١- قيام دولة المرابطين، لحسن أحمد محمود القاهرة، ١٩٥٧م.
٨٢- قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
٨٣- موسوعة التاريخ الإسلامي، د.أحمد شبلي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥م.
٨٤- مجموعة رسائل ابن حزم.
٨٥- موسوعة المغرب العربي للغينمي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٨٦- مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة ١٩٧٩م لم تطبع.
٨٧- معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م.
٨٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق أحمد شاكر، أتمه د.عبد الحسين عبد المجيد هاشم، ذار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.
٨٩- مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.
٩٠- الأغالبة سياستهم الخارجية، محمود إسماعيل.
٩١- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، مجلة محكمة.
٩٢- نظم الجمان في أخبار الزمان لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.
٩٣- نظم المتناثر في الحديث المتواتر للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ.
٩٤- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري، تحقيق، د. إحسان عباس.
٩٥- وادي المخازن، لشوقي أبي خليل دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
٩٦- وفيات الأعيان لابن خلكن، شمس الدين، أبو العباس بن خلكان، دار صادر بيروت، حققه إحسان عباس.

* * *

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين

* * *

مؤلفات الدكتور علي محمد الصلابي

- السيرة النبوية
- أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي
- الدولة الأموية
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم
- الدولة الفاطمية
- عثمان بن عفان رضي الله عنه
- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة
- دولة المرابطين
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- حقيقة الخلاف بين الصحابة
- دولة السلاجقة
- عبد الله بن الزبير
- فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه
- الدولة الزنكية
- عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- الإمام الغ
- الدولة العثمانية
- محمد الفاتح
- الشيخ عبد القادر الج



مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط ٥٣٢٢٦٦١٠ ـ ٠١٠/٥٢٤٤٢٠٧
www.iqraakotob.com
Email:info@iqraakotob.com